دكتور رشدى فكار

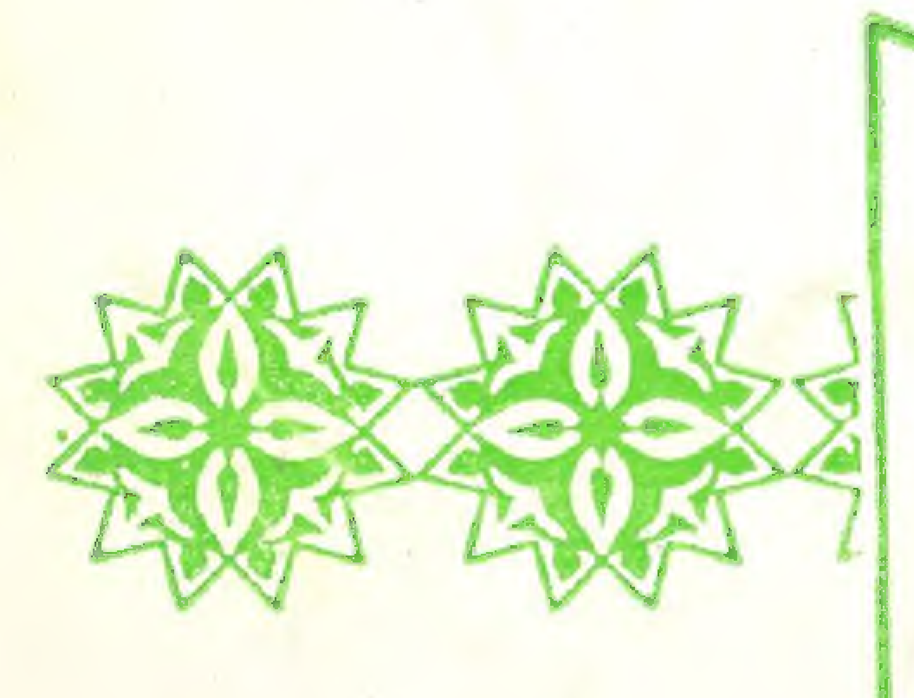


تأملات إسلامية

فى قضايا الإنسان والمجتمع

- فى الشباب وحرية الاختيار
- فى الاسلام بين دعاته وأدعيائه
- فى الماركسية والدين
- فى السحر وما حوله : ما له وما عليه
- انسان القرآن من خلال أبعاده الاجتماعية
- فى البغاء الوحشى





الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
تليفون ٩٣٧٤٧٠

دكتور رشدي فكار

تأملات إسلامية
في
قضايا الإنسان والمجتمع

- في الشباب وحرية الاختيار
- في الاسلام بين دعاته وأدعيائه
- في الماركسية والدين
- في السحر وما حوله : ما له وما عليه
- انسان القرآن من خلال أبعاده الاجتماعية
- في البغاء الوحشي

مكتبة وهبة
١٤ ـ شارع الجمهورية ـ عابدين
القاهرة ت : ٩٣٧٤٧٠

الطبعة الأولى

شعبان سنة ١٤٠٠ هـ ـ يوليه سنة ١٩٨٠ م

دار غريب للطباعة
١٤ شارع نوبار (لاظوغلى) القاهرة
تليفون : ٢٢٠٧٩

بسم الله الرحمن الرحيم

« ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة

وجادلهم بالتى هى أحسن »

« صدق الله العظيم ».

(النحـل : ١٢٥).

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمد الله ونستعينه ونستهديه .. وبعد .

• أمام الرغبة الملحة – لقراء العربية – فى العالم العربى والإسلامى.

ورغبة فى الاستفادة من إنتاج هذا المفكر الإسلامى الكبير فى المحيط العالمى – باللغه الفرنسية أساساً . إلى جانب اللغة الإنجليزية ..

.. نتقدم بهذه الدراسات – وفاء بعهدها – علمياً ومنهجياً – للتعريف بقضايا الإنسان والمجتمع على ضوء تأملات إسلامية .. ترى هذه القضايا بمنظار العصر وتحت راية الالتزام بالأسس والقيم الخالدة ..

• وهذا الكتاب : يشتمل على مجموعة من الدراسات للمفكر الإسلامى الكبير – **الدكتور رشدى فكار** – الأستاذ بجامعة الإمام محمد الخامس – بالرباط – والأستاذ الزائر بالجامعات العربية والأوروبية .والعضو المشارك فى أكاديمية العلوم « مجمع الخالدين » بفرنسا – وعضو الهيئة العالمية للكتاب بالفرنسية ..

والمرشح لدى الأكاديمية السويدية – منذ ٣ أكتوبر سنة ١٩٧٦ لجائزة نوبل فى الأدب ..

• وتقع هذه الدراسات فى ستة فصول. كل فصل منها يتناول قضية – منفصلة – من قضايا الإنسان والمجتمع . وإن كانت جميع الفصول تلتقى فى نظرة شمولية من منطلق إسلامى ، يحتكم إلى قدرة العقل ومناهج العلم ليطرح فى القرن العشرين .. أن لا صلاحية لإنسان فى غيبـة التزامه بتعاليم السماء ..

• ونظراً لتحدد الاستشهادات والنقل من هذه الدراسات الهامة فى البلاد العربية .. نشير بعد المراجعة والاستئذان من المؤلف .. أن هذا هو النص الكامل والوحيد – باللغة العربية الذى لم يلحقه أى تحريف أو تشويه .

ومن الله نستمد العون والتوفيق .

« ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشداً »

مكتبة وهبه

الفصل الأول

فى
الشباب
وحرية الاختيار

- الاختيار العقائدى
- الاختيار المعيشى
- الاختيار فى بناء الأسرة
- الاختيار السلوكى فى العلاقات الاجتماعية

بسم الله الرحمن الرحيم

الشباب وحرية الاختيار

قضية الشباب الأساسية فى هذا العصر هى قضية حرية الاختيار أمام تحديات معقدة متعددة متداخلة ، وفى نفس الوقت متناقضة . يمكننا أن نجمل قضية الشباب وحرية الاختيار فى اختيارات رئيسية أربع نتعرض لها فى أربعة مباحث وهى :

– حرية الاختيار العقائدى ؛ عقائدية المعتقدات الدينية والروحية بين الإيمان بها باسم العقلانية الواعية المرتبطة بغائية المعرفة أو رفضها باسم المادية الاستهلاكية المسيطرة على نزعات العصر . ثم عقائدية الأيديولوجيات كأنسقة لنظم بين إيديولوجية قيمية وإيديولوجية مصلحية .

– حرية الاختيار المعيشى بين التطلع إلى الرفاهية أو الملل منها .

– الاختيار الأسرى لشريك أو شريكة الحياة بين غرائزية الاختيار المشبعة بالعاطفة ، أو عاطفة الاختيار المشبعة بالتقدير ، أو افتراض ثالث : الاختيار المصلحى .

– حرية الاختيار السلوكى فى العلاقات الاجتماعية بين سلوك اندفاعى انفعالى ، وبين سلوك مترو ممارس .

***

المبحث الأول

الاختيار الأول : الاختيار العقائدى

عقائدية المعتقدات الدينية والروحية بين الإيمان بها باسم العقلانية الواعية المرتبطة بغائية المعرفة ، أو رفضها باسم مادية استهلاكية مسيطرة على نزعات العصر تعتمد على مراهنة كثيراً ماتكون عنادية أو شخصية أكثر من اعتمادها على تبصر وتعمق فى المعرفة . شباب هذا العصر على مختلف نزعاته وانتماءاته البيئية أو الطبقية أو الحضارية أوحتى الوسط الطبيعى سواء فى المجتمعات المتقدمة أو الفتية النامية يعانى حقاً من قضية حرية الاختيار العقائدى . فما أكثر المضاربات التى وقعت والمقامرات ، وحتى المغامرات منطلقة من حسن النية أو العكس . وقضية الاختيار العقائدى حسب انطباعاتنا ورؤيتنا المتواضعة ، قضية هامة تمت حولها مزايدات باسم الحماس المنصب على شكلية الاختيار أكثر من انصبابها على الجوهر وتوخى الخلفيات والمتناقضات وتسببت فى استنزاف قدرات خلاقة كان على المجتمعات المتقدمة صناعياً أن تستنزفها . فلم تكتف هذه المجتمعات باستنزاف ثروات الشعوب المغلوب على أمرها ونهبها خلال الاستعمار ، بل حاولت أن توقف تقدمها الفتى فى النمو عن طريق استنزاف قدراتها الفكرية الخلاقة فى مواجهات حول قضايا صورية ، حول الألوان والأشكال ؛ فكل مجتمع صناعى من الدول العظمى يسعى أن يلون شعوباً بلونه ، ويصبغها بصباغته عقائدياً أو فكرياً بصفة عامة حتى يحتفظ بها فى دوائر نفوذه ويحقق بذلك مصالحه أولا وقبل كل شيء . ولنفصل ونشرح بكل موضوعية وتجرد ، ولانقصد بذلك إلا وجه الله العلى الكريم ، الملهم للصدق فى الكلم ، والصفاء فى النية والرؤية على حد سواء .

الاختيار على مستوى عقائدية المعتقدات الدينية والروحية بين الإيمان أو الرفض فى المجتمعات المتقدمة الصناعية ، لاشك أن وضعه يختلف بين فئة اجتماعية وأخرى ، بل ويختلف حسب مراحل الفكر وطبيعة المصالح . النخبة مثلا فى هذه المجتمعات الصناعية ترفض إما باسم العناد الفكرى وتحت شعار حريته أمام غائية المعرفة المبرزة لطبيعة القصور لدى المفكر مهما عظمت قدراته العقلية — كما أشرت إلى ذلك تفصيلا فى كتابى « تأملات فى الإسلام » المنشور باللغة الفرنسية ، وإما باسم البحث عن شهرة شخصية وتأليه لها على حساب رفض الإله الأوحد خالق السماوات ، فهذا نوع من الإشراك الفكرى قد يختلف عن عصر الإشراك الأول قبل الوحدانية فقط فى بعض مظاهره ، وبالتالى فهو ردة إلى الإشراك على مستوى عبادة بعض المفكرين لأنفسهم وحث البعض على عبادة أفكارهم بعد أن وضعوا أنفسهم موضع الإله ، وبما أن الشباب فى هذه المجتمعات المتقدمة يتخذ فى أغلب الأحيان نماذجه من هذه النخبة باسم حرية الاختيار ؛ فما أكثر دعاة الرفض بين بنى بيئته . الرفض بطبيعته سهل الأبعاد كنمط فكرى ، فما أسهل الرفض التلقائى ولكن ما أصعب البحث والتعليل . استلب الشباب وعمت حيرته فذابت القيم الأساسية ، وانطلق الرفض من رفض الإله إلى رفض الأسرة ، وفى النهاية إلى رفض الذات . وكان العراء ، العراء الكامل ، عراء للذات من الذات ، فالإيمان بالله يقود إلى الثقة بالذات . وبالنسبة للمجتمعات الفتية ، القضية مطروحة أيضاً على أساس حرية الاختيار بين الإيمان والرفض. وفى السنوات القادمة فى الثمانيات والتسعينيات ستكون أكثر وضوحاً . غير أن الإسلام بما فيه من قدرة مرنة فى استطاعته امتصاص ظاهرة الرفض هذه . ولكن شريطة أن حرية الاختيار لاتنصب على مظهريته وشكليته ، وإنما تعنى الجوهر وبالتالى نستسمح إن أشرنا إلى نقطة دقيقة لها أهميتها ، ألا وهى خلال المواجهة بين الإيمان والرفض ، من الأولى أن يتم ذلك على مستوى الجوهر ، والإسلام ليس لديه ما يخشاه أو يهابه من واقع مواجهة جادة . نشرح فنقول على الرافضين للإسلام

أن لا يستعملوا تعبيرات مفرغة من محتواها ، لا تتجاوز إطار المحاولة ولمجرد التعويم لا أكثر ولا أقل ؛ وإنما يحاججونا بحقائق معللة رزينة ومسببة . وكذا على المدافعين عن الإسلام في القرن العشرين أن يدافعوا عنه من خلال حقائق موضوعية أصلية ومسببة ، وبفضل قدرات فكرية واعية بحقيقة متناقضات العصر .

وعليه : فالذين يحاولون أن يجعلوا من القرآن والسنة معامل ليكتشفوا فيها فيزيائيات . وذريات ، وصواريخ ، وأقمار صناعية ، يلتقون مع الذين يردون على أي محاجة أو مواجهة بكلمة بيانية إنشائية وألفاظ رنانة تعتمد أولا وقبل كل شيء على رونق الكلمة ومناحيها البلاغية دون أن ترتفع إلى مستوى البرهنة والأصالة الفكرية والعملية . فكلا الطرفين لم يع واقع المواجهة في القرن العشرين ، وقدرة الإقناع . القرآن والسنة وهما أساس عقيدتنا وجوهرها الأصيل المفروض أن نصل بهما إن برهنة أساسية على مستوى التوافق أو التناقض والمنافاة مع التقدم العلمي فلا نجعل منهما مجرد معامل تجريبية أو مجرد خطاب إنشائية .

فالقرآن والسنة مبادىء كبرى أسمى وأخلد من مجرد معامل تخطىء وتصيب تجريبياً وأشمل وأقدس وأعم وأعمق من مجرد ألفاظ يغرد بها للطرب أو تستذكر كرنين بياني أو إيقاعي .

السؤال المطروح الآن في المواجهة والاختيار هو أن الهدف في الكشف عن إعجاز رسالة الإسلام وصلاحيتها لا يكون بتحويلها إلى تجارب معملية أو بالدفاع عنها خطابياً عن طريق الكلمة فقط ؛ وإنما بالرد على تساؤل هام وهو هل هناك (وقد مر على رسالة النبي الحبيب أكثر من أربع عشر قرناً) ما يعارض العلم أو يتنافى معه في القرن العشرين ؟ هل خطأ العلم القرآن والسنة ؟ أو العكس أكد صدقهما .

إن التقدم العلمي الهائل الذي أحرزه الإنسان حتى اليوم سواء في ميدان العلوم الطبيعية أو الإنسانية ، كل يوم يشهد بصحة القرآن وصدق

ما جاء على لسان رسوله عليه السلام حتى بالنسبة للظواهر الملتبسة المغمضة. ونعطى كمجرد مثال ظاهرة السحر . فتحديد القرآن لهذه الظاهرة منذ أربع عشر قرناً ووصفها بالتخيل أى تعرية الإرادة وأنها تعلمية (وقد جاء فى عصر كان السحر متصدراً فى كثير من المجتمعات وتنشر حوله أساطير إعجازه وقدرته) ووضعه له فى وضعه الصحيح ، جاء العلم فى مؤتمرات دولية فى النصف الأخير من القرن العشرين ليلتقى مع التحديد القرآنى لظاهرة السحر وما حوله وما أكثر الظاهرات الأخرى التى وردت فى القرآن ، ولو قمنا بتفهم موضوعى لها على ضوء القرآنيات لوجدنا العلم يلتقى تماماً مع كتابنا المقدس الكريم .

حتى بالنسبة للشياطين والجن والنار والجنة وتحريم الخمر والزنى والميسر ، (وقد تعرضنا لبعض هذه الظاهرات فى دراسة لنا عن السحر وما حوله نشرت باللغة العربية) (١). إن علاج السوسيولوجيا كعلم حديث لهذه الظاهرات حينما ندقق النظر فى طرقها العلمية والمنهجية من وصف للظاهر وتبيان لما لها وما عليها وسببيتها من خلال مجموع عواملها ، ثم ما يترتب عليها ، لوجدنا رؤية العلم تلتقى مع رؤية القرآن أيضاً ، وما أكثر الأمثلة لمن يبحث فى نقط الالتقاء بين العلم والقرآن والسنة . وهنا تكمن حقيقة المواجهة الموضوعية الرزينة والبناء .

الجانب الثانى من الاختيار العقائدى ونعنى عقائدية الايديولوجيات كنسق لنظام بين الايديولوجيات القيمية والايديولوجيات المصلحية :

نشير فى البداية ، بالنسبة لهذا الجانب من حرية الاختيار العقائدى للإيديولوجيات إلى حقيقة كثيراً ما التبست على البعض فى دولنا النامية ، خصوصاً على مستوى النخبة ، وهى أن الإيديولوجيات فى النصف الأخير من القرن العشرين تتجه أكثر فأكثر فى الدول المتقدمة (ومنها يستقى

---

(١) انظر الفصل الرابع من هذا الكتاب .

هذا البعض أنماطه الفكرية) إلى المصلحية بمعنى لم تعد إيديولوجيات لها هدف قيمي إنساني بقدر ما هي مجرد تبرير لمصلحة ونفع استهلاكي أو ربح إنتاجي . وهكذا تتقلب الإيديولوجيات وتتلون ليس فقط فى العام الواحد . وإنما فى اليوم الواحد أيضاً تمشياً مع المصالح من خلال تصريحين للمسئولين فى الدول المتقدمة الكبرى صناعياً ، نجد تصريحاً فى الصباح يناقضه تصريح المساء . ولكن ليس معنى ذلك كذب أو نسيان ، وإنما المصلحة تتطلب هذا التلون . اعتقد البعض فى صفاء هذه الإيديولوجيات التبريرية المصلحية على أنها إيديولوجيات قيمية تعبر عن مبادىء إنسانية أصيلة فتبنوها وثم راحوا ضحية لها . وكانت خيبة الأمل فى أكثر المواقف والمواجهات . الإيديولوجيات القيمية مع تقدم الآلة صناعياً ، والمعرفة التقنية ، والتطور العلمى ، وزيادة متطلبات المجتمعات الصناعية ، واستلابها استهلاكيا زابت ، وتحولت إلى شعارات ترمز إلى تاريخ أكثر ما تعنى واقع ملموس . لنتدبر ونعمق النظر فى المجتمعات الصناعية الكبرى . تجرى انتخابات تلو انتخابات ، وتنتصر شعارات على شعارات ، وحقائق المجتمع هى هى : المحافظون والعمال فى إنجلترا ، الديمقراطيون والجمهوريون فى الولايات المتحـــدة ، والأمثلة كثيرة لمن يعى ويتدبر . وحتى فى المجتمعات التى تزاول ما يسمى بالديمقراطية المباشرة فى ظل النظم الموجهة ، الإيديولوجيات أيضاً تبريرية مصلحية بمعنى تنطلق من مصالح مجتمعاتهم وضرورياتها الفورية أكثر من انطلاقها من إطار قيمى غائى كتعبير عنه. وهنا كانت المضاربات وعم الضباب وسيطر على حقيقة الرؤية ، وظن البعض أن هذه الدول تتنكر لوعودها وقيمها فى بعض الأحيان ، كلا إنها بكل بساطة تعبر عن وفائها ودفاعها عن مصالحها ومتطلباتها ، ومستودعات الشعارات موجودة ، تخرج منها الشعار المناسب للموقف المناسب . فعلى شباب مجتمعاتنا الفتية أن يعى جيداً ، يعى أن مصالحة بدورها تنطلق من أرضه الطيبة وإيديولوجياته التقدمية لابد وأن تعبر عن أصالته واعتزازه بواقعه (بالنسبة لنا واقع عربى البيئة ، حضارياً ، وإسلامى المبادىء والاتجاهات ، فى إشعاعه واحتكامه) .

إننا في عصر التحديات العالمية ، وبالتالى لا مكان بيننا لمستلب أو مستلب بالنسبة للدول المتقدمة صناعياً . بعض الشباب في مجتمعاتنا ، ربما عن حسن نية أو براءة في التصور ، أو عدم دراية بطبيعة المتناقضات ، يعمل لصالح غيره أكثر ما يعمل لصالح أرضه وشخصيته وأصالته التراثية وأطماحه التقدمية المشروعة ؛ علينا أن نطرح قضية حرية الاختيار الإيديولوجي في إطارها الصحيح . في نهاية القرن العشرين نعيش واقع الإيديولوجيات المصلحية ، النفعية ، المنطلقة من حاجة المجتمعات الكبرى إلى تبرير احتكارها للمجتمعات البشرية الأخرى ، بفضل شعارات تكتيكية تعتمد على فورية المواقف ، وتلقائية الاقناع ، وهى في نفس الوقت تعنى تحقيق استراتيجية شاملة لا يتعدى دور الإيديولوجيات فيها مجرد الوسيلة للتغلب على المتناقضات الناشئة عن تعدد المصالح .

الإيديولوجيات بالنسبة للغالبية (أى باستثناء أقلية ما زالت ملتزمة بإطارها القيمى وتفانيها في سبيل مثلها الأصلية) أصبحت تحت مسمياتها المستحدثة مثل التكتيك والاستراتيجية ، وبفضل تعبيرات عارية عن كل محتوى محدد (فهى تعنى كل شىء ولا تعنى شيئاً بعينة) لا تتنافى فقط مع منطلقها الأساسى وهدفها في حد ذاته ، وإنما تتنافى أيضاً مع أبسط مظاهر السلوك المعنوى للإنسان وأبعاده الخلقية . لقد أصبح النفاق ، والغش ، والكذب ، والتذبذب وكلها صفات حذرت منها الأديان السماوية إلى جانب تنافيها مع المثل الإنسانية التقدمية والمعنوية والفلسفية والخلقية أصبحت هذه الصفات ضرباً من التكتيك المشروع في الإيديولوجيات المعاصرة للدول الكبرى وليس فقط على مستوى الفرد ، وإنما على مستوى الجماعات ، بل والمجتمع بأكمله ، وأصبحت الدول الكبرى تبيت سوء النية وتخطط لها بالنسبة للدول المغلوب على أمرها ، وتطلق عليها « الاستراتيجية الشاملة » . مستغلة في ذلك تخلف العقلية الجماعية وجهلها بحقائق الأمور . بل هى تستفيد من جهل الشعوب وأخطائها ، لكى تدعم احتكارها وسيطرتها .

فعلينا وعلى الشباب بصفة خاصة أن يعى ذلك . وكما قال شاعر عربى عريق فى ماضى العصور وإن كان قوله ما زال صائباً ومطابقاً لحقائق عصرنا اليوم :

لا يبلغ الأعداء من جاهل ما يبلغ الجاهل من نفسه

على شبابنا أن يكون متدبراً وواعياً بهذه المتناقضات التى تحيط به ، وأن تكون إيديولوجيته الحقة هى الإيديولوجية التقدمية المنطلقة من ذات أصالته وتراثه ومتمشية مع معطيات بيئته الأساسية ومتجاوبة مع قيمه الحضارية الإسلامية العربية العريقة تدافع عنها ، وتعمل على صيانتها وإشعاعها ، وتدافع عن مصالح شعوبها وعن فئاتها الأكثر فقراً وعدداً بإصرار وغيرة ورزانة ومشروعية أمام مصالح الأجنبى ، لأننا نعيش فى عصر فرضت فيه الدول الاحتكارية الصناعية الكبرى مبدأ كثيراً ما نقده فلاسفة مطلع العصر الحديث (ج . ج . روسو ، ولوك .. وغيرهم) ولم يدافع عنه إلا قلة (هوبز وميكافيل) وهو مبدأ اتخذ كشعار له بيت للشاعر اللاتينى « بلوتس » وتبناه هوبز ليعبر به عن حقائق العلاقات بين الأفراد والجماعات والمجتمعات ، ونعنى به مبدأ « هومو هومينى لوبيس » أى « الإنسان للإنسان كالذئب للذئب » ، بمعنى نعيش أمام الدول الكبرى الاحتكارية فى مجتمع الذئاب لا المجتمع الإنسانى العطاء القيمى المدافع عن أصالته الروحية وأعماقه المعنوية . إنسان الإشباع الغرائزى وهو إنسان المجتمعات الاستهلاكية المعاصرة .

إيديولوجيتنا مهما تنوعت المشارب ، وتعددت الرؤيا فى سبيل تحقيقها ، عليها أن تكون إيديولوجية تهدف إلى الاعتزاز بهويتنا الإسلامية العربية ، الاعتزاز بقيمنا الأصيلة وتقاليدنا العريقة ، وإنسان لا يحترم ذاته ويقدرها ويعتز بما لديه لا ينتظر من الآخرين الاعتزاز به وتقديره . على الشباب أمل الغد أن يعى جيد هذه المتناقضات التى تحيط به ، عليه أن يستوعب ويتدبر لحقائق عصره ثم يقرر بعد ذلك الاختيار وليس العكس .

***

المبحث الثانى

الاختيار الثانى : الاختيار المعيشى
بين التطلع إلى الرفاهيـــة أو الملل منها

نلاحظ ، دون شك ، فى المجتمعات الصناعية ، لدى بعض فئات الشباب الملل من الرفاهية ، ومحاولة لرفض الاستيلاب بها ، ورغبة فى العودة إلى حياة الطبيعة (كمثال ظاهرات كثيرة تقمصت بطريقة أو بأخرى هذا الاتجاه كظاهرة : الهيبية ، والبرفوس ، وما حولها من ظاهرات شبيهة تعبر ضمنياً عن نفس الاتجاه) ، بل وفى أغلب الأحيـــان من باب المحاكاة والتقليد يتجه بعض شباب الدول الفتية النامية وباسم حرية الاختيار إلى تبنى هذا الاختيار ، اختيار الملل والرفض ، غير واع باختلاف البيئة والمحتوى ، وحاجة مجتمعه إلى قدراته ومشاركته فى فترة انطلاقه .

وهنا نتساءل : كيف يمل إنسان فى بداية الطريق ؟ إن كان لبعض فئات شباب العالم المتقدم أن تمل الرفاهية لأنها تذوقتها حتى الشبع . ولكن كيف يمل إنسان لم يتذوق بعد الرفاهية، فمثله كمثل ملل الجائع من الطعام فى بداية تحضيره له . اللهم إلا إذا كان مريضاً أو عليلا . إذ العكس هو الصحيح . ظاهرة الملل إن وجدت لدى بعض شباب مجتمعاتنا الفتية فعلينا أن نعالجها على أنها ظاهرة مرضية أكثر منها ظاهرة صحية تدل على تعمق المجتمع فى الرفاهية وتنوعها ، والوصول بها إلى مرحلة الملل كما هو الحال فى بعض المجتمعات المتقدمة . ورغم وجودها فى بعض هذه المجتمعات الصناعية الإنتاجية الكبرى فهى ظاهرة معزولة لدى بعض الفئات ولم تحد من قدرة هذه المجتمعات فى الاندفاع والتدرج فى مراحل التقنية والعلمية والتقدم بصفة عامة .

إنها بالنسبة لمجتمع صناعى متقدم تعبر عن سخونة الدفع والحركة والحاجة إلى التهوية كما هو الحال فى عربة قطعت مسافة كبرى من الطريق دون توقف عليها أن تتوقف لإراحة المحركات من قوة الدفع . أما عربة لم تدر محركاتها بعد أو فى بداية تحركها تحتاج إلى تهوية لمحركاتها ، فهذا لا يعنى سخونة بقدر ما يعنى عدم الرغبة فى التحرك أساساً .

إننا قد نلتمس العذر لمجتمع صناعى مندفع ساخن ، أن تلجأ بعض فئات شبابه إلى التهوية دون أن تؤثر فى حركته الشاملة كما هو الحال فى هيبية المجتمعات الصناعية الكبرى . ولكن كيف نلتمس المعاذير لشباب مجتمعاتنا الفتية ! أن تتبنى الهيبية والملل والرفض فى مجتمعاتنا وهى أساساً فى ركودها تعيشها فى شكل طبيعى كشمول فرض عليها خلال فترات الاستعمار ، وقد آن الأوان للخروج منها ، إن مثلها آنذاك كمثل الذى يريد أن يستريح من الراحة . ليس أمام شباب مجتمعاتنا الفتية إلا اختيار طريق التطلع ورفض الرفض والملل ، التطلع إلى غد مشرق . فظاهرات الملل والرفض ظاهرات مسمومة ودخيلة سواء بحسن نية وفى أغلب الأحيان بسوء نية ، فمن المسلم به أن المجتمعات الصناعية الكبرى تعمل دائماً على التخلص من ظاهرات الرفض والملل عند شبابها ، وذلك بتسهيل بل وبتشجيع هذا الشباب الرافض والذى يمارس الملل عندها على الرحيل إلى المجتمعات الفتية ، وعلى الاحتكاك بشبابها تحت شعارات اللقاءات والمسامرات الصيفية ، إنها طريقة من طرق متعددة لشل قدرة المجتمعات الفتية على الخلق والنهوض ، لأن الشباب هو عدة هذه المجتمعات وكما يقول المثل « رمتنى بدائها وانسلت » .

على شبابنا أن يكون طموحاً متطلعاً ، وله الحق فى ذلك . له الحق فى أن يحقق مجتمع الرفاهية والحياة الكريمة بعد مسيرة طويلة من المعاناة فى فترات الاستعمار . ومع هذا ، علينا حتى نكون صرحاء مع أنفسنا أن نضيف : « ولكن للرفاهية هذه حدود » بمعنى لا يتحول الإنسان إلى عبد لرفاهيته المادية ويصبح مثله كمثل « المنبت والمتهالك على الدنيا ، فلا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى » بمعنى لا يصل إلى هدفه لأن الرفاهية

حينما تصبح هدفاً فى حد ذاتها وليس مجرد طريقة كريمة تولد مزيداً من الحاجة إليها ، فيظل الباحث عن المزيد شأنه شأن المتبالك الذى يلهث ولا يرتوى : فكلما ترفه الإنسان وجعل الترفه غايته وليس تحقيق مثل أسمى من الرفاهية ، يخضع ويستلب باسمها ويصبح عبداً ميسراً لها ، ولا يستيقظ ويعى حقيقة استلابه إلا فى لحظة الاحتضار والاستعداد لدخول القبر . حيث مثواه الأخير ومقره الدائم ، وهو مقر لا يتطلب الرفاهية ، وإنما مدى ما حققه من عمل صالح وبناء باقى أبد الدهر بعده . عليه بالتالى أن يكون وسطياً فى رفاهيته كما أرشدنا إلى ذلك ديننا الحنيف حين جعل الوسطية هى الحل الأفضل للحياة الكريمة ، حتى وسطية الإنفاق ، ووسطية المشى والكلام . وما علينا إلا أن نراجع الآيات الكريمة التى وردت فى سورة الإسراء والسور الأخرى التى تحدث على الوسطية حتى شمولنا كأمة دعانا الإسلام أن نكون وسطيين « **أمة وسطا** » (١) وما أروع ما يحتويه معنى أمة وسطاً فى كل مناحيه وجوانبه المتعددة من حقائق بناءة وأصيلة .

وسطية الرفاهية تعطى لنا حقيقة التذوق وصدق المشاعر بها . إن من يغالى حتى فى رفاهية طعامه قد تحرمه مغالاته من الشعور بالتذوق وتدفع إلى الحسرة والملل ، وهى حسرة أشد وأقسى من حسرة المحروم من الطعام بمعنى حسرة من يعاف الطعام ويسأمه وهو أمامه ولا يجد شهية فى أكله تفوق بكثير حسرة الراجى للطعام والمتشوق إليه ، فهذا ما زالت لديه لذة التشوق المنبعثة من شعور الأمل بالحصول عليه ، بينما الآخر بفقدانه لذة التشوق بعد فقدانه لاشتهاء ما هو بين يديه قد فقد فى الواقع كل شىء . المغالاة والوصول بالرفاهية إلى حد التطرف يفرغها أساساً من محتواها وتصبح مجرد نوع من التشيؤ والإسقاط والضياع فيه أو الوصول به إلى الاستلاب لا أكثر ولا أقل .

إذن رفاهية فى ظل حياة كريمة دون الاستلاب بها ، وذلك بفضل وسطية واعية تجعل منها وسيلة للحياة لا هدفاً غائياً لها .

---

(١) البقـرة : ١٤٣ .

المبحث الثالث

الاختيار الثالث : الاختيار فى بناء الأسرة
بشريك أو شريكة للحياة بين عاطفة مندفعة بالغريزة
وعاطفة منطلقة من التقدير المتبادل وبين الاختيار المصلحى

قضية حرية الاختيار فى بناء الأسرة لدى الشاب والشابة قضية تحتاج إلى شىء من الصراحة والتوضيح وتحاشى التغميض ما أمكن . حرية الاختيار لدى الشباب بالنسبة لبناء الأسرة مهما كانت أبعاده مشروط أولا بالإطار الزمنى ، فشاب وشابة فى مقتبل العمر — العشرينيات مثلا — مقايسة فى الاختيار ، قد تختلف عن شاب وشابة فى الثلاثينيات من عمرها ، كما تختلف بالأحرى عند رجل أو امرأة تجاوزا الأربعين . من العشرينيات إلى الثلاثينيات مقاييس الاختيار كثيراً ماتتغلف فى إطار غرائزى مشبع بالعاطفة أى يتصدر العامل البيولوجى مع العاطفة ، وفى الثلاثينيات غالباً مايتناوب الاختيار بين عاطفة التقدير المشبعة بالغرائزية ، والعكس وبين تحقيق المصالح المشبعة بالغريزة أو التقدير ، وتلعب الظروف أحياناً دوراً أساسياً فى تغلب أو تصدر أحدهما على الآخر ، باسم الحاجة والضرورة . وفشل الاختيار لا يتوقف على الإطار الزمنى بقدر ما يتوقف على مدى تعرف الشاب أو الشابة على ما ينتظره أحدهما من الآخر وعلى مدى تغلب نقط الالتقاء على نقط التباين ومدى تزكيتها ، والإكثار أو الإقلال من أهميتها . فكثير من الشباب يجهل عمقه ، ولا يستطيع أن يحدد ماذا يريد أساساً ، بمعنى لايفهم نفسه ، فمن باب أولى لايفهم الطرف الآخر ، وآنذاك يترك للآخرين يقيسون له النسق الملائم فى الاختيار ، ثم يوجهونه فى معايير الفشل أو النجاح . إن وعى الرجل حالياً بحقيقة دور المرأة ، ووعى المرأة بحقيقة دورها ، وبما طرأ على دور الرجل وعلى دورها من تغيرات جاءت نتيجة لمتطلبات العصر قد يساعد كثيراً فى صحة الاختيار وصلاحه ونجاحه بالتالى .

فالشاب فى النصف الأخير من القرن العشرين . عليه أن يعى أن طبيعة تعليم المرأة وزمالتها له فى المجتمع إلى جانب مشاركتها له فى الأسرة . قد دعم إطار الحقوق وعادل بين إطار الواجبات بالنسبة للرجل . فطبيعة الحياة فى هذا العصر حدت عملياً من حقوقه المطلقة على المرأة واتجهت به إلى المعادلة مع الواجبات . وذلك حينما أصبح للمرأة دور مزدوج فى الأسرة والمجتمع . فى الأسرة كشريكة وفى المجتمع كعضوة (هذا الدور المزدوج كثيراً ما يلتبس على المرأة والرجل على حد سواء . فيفهم المجتمع على مستوى المشاركة . ويفهم الأسرة على مستوى العضوية) ، وكثيراً ما يطغى الدور المجتمعى على الدور الأسرى بل ويلغيه ، بينما العكس هو الصحيح ، أى أولوية الدور الأسرى على الدور المجتمعى . الدور الأسرى سابق للدور المجتمعى وليس بالعكس ، فالمرأة قبل أن تكون عضوة فى المجتمع هى أم لأسرة وزوجة لزوج . الحق الاجتماعى مكمل وليس أساسى . وإلا اهتزت كل المعايير وتقوضت الأسرة . وبالتالى انهار المجتمع الذى تشكل الأسر خلاياه الأساسية . ولن تفقد آنذاك فقط دورها الاجتماعى : بل فقد المجتمع بأسسه وانفصمت أسره .

دور المرأة فى المجتمع ، عليه أن يتكامل مع دورها فى الأسرة ، ويكون امتداداً له ، تكامل الأصل مع جزئياته . وهنا نطرح مشكلة ملموسة حالياً فى بعض المجتمعات ، وجاءت نتيجه لالتباس دور المرأة المزدوج (وقد أشرنا إلى ذلك فى حديث لمجلة روز اليوسف القاهرية فى مناسبة سابقة) وهو التباس يقود فى النهاية — نظراً لعدم الوعى — إلى الانعكاس فى الأدوار ، فيطبق الرجل أو المرأة دوره الأسرى فى المجتمع ، ودوره المجتمعى فى الأسرة . يفهم الدور المجتمعى تحت شعار المشاركة ، ويفهم الدور الأسرى تحت شعار العضوية .

وهكذا تصبح العلاقة بين الرجل والمرأة فى المجتمع علاقة مشاركة ، بكل ما تحتويه الكلمة من معنى مشاركة فى العواطف ، مشاركة فى دخائل الأمور ، وبالتالى تتحول العلاقات المجتمعية فى المكاتب والمؤسسات

وبقية أجهزة المجتمع بين الرجل والمرأة إلى علاقات مشاركة أسرية مجاملة وحناناً ، وعطفاً ، وحتى ملاطفة وحباً . بينما تتحول العلاقات الأسرية في المنزل إلى مجرد علاقات بين عضوين في مؤسسة لا أكثر ولا أقل . لتبادل المصالح والمحاسبات . وهي من خصائص العلاقات المجتمعية . في المنزل تحتفظ الزوجة لزوجها وكذا العكس من حيث المظهر بالكلمات الجافة المختصرة ، واللباس والزينة ، دون اهتمام بهما . وعدم اللياقة والمراعاة . ومن حيث الجوهر ، تأخذ العلاقة طابع روتيني شكلي عاري عن كل رعاية وحنان وجذب وتكامل أو اندماج . مصالح وحسابات : شركة مساهمة تجارية بين عضوين . بينما في المجتمع ، في المكتب أو المؤسسة . تحتفظ الزوجة لزميلها رئيساً أو مرؤوساً ، وكذا العكس . من حيث المظهر بكلمات المجاملة والملاحظة ، والاهتمام باللباس والزينة . ومن حيث الجوهر تأخذ العلاقة طابع بنيوى ملىء بعناصر الرعاية والجذب والمشاركة والتكامل وحتى الاندماج ، وتحاشى ما عدى ذلك ، هذه هي مقومات الدور الأسرى لا الدور المجتمعى ، بينما المقومات الأولى هي مقومات الدور المجتمعى وليس الدور الأسرى ، وهذا ما نعرفه بالتباس الدور في المجتمعات الحديثة وانعكاساته . على شبابنا أن يرى هذه الحقائق ويعى بحقيقة المعايير البيولوجية والعاطفية والمصلحية ، وحقيقة وضع الإطار الزمنى في حرية الاختيار . ثم مدى نجاحه يتوقف على معرفة حقيقة الدور الأسرى وحقيقة الدور المجتمعى ، وكذا العلاقة بين الدورين بما فيه بناء الأسرة واستقرارها وتقدم المجتمع ورقيه . الأسرة مشاركة وتكامل واندماج . مراعاة وحنان وعاطفة . ومجاملة ، وتفانى كل طرف — الرجل والمرأة على حد سواء — في سبيل إسعاد الطرف الآخر ... بينما في المجتمع عضوية : وزمالة في سبيل خدمة الصالح العام وفي ظل الاحترام والتقدير المتبادل بين الطرفين . وهكذا تستقر الأسرة وينهض المجتمع .



المبحث الرابع

الاختيار الرابع : الاختيار السلوكي فى العلاقات الاجتماعية بين الاندفاع والانفعال ، وبين التروى والممارسة

من المسلم به أن الشباب غالباً ما يميل بطبيعة سنه ، إلى الاندفاع والانفعال والمجازفة ، فمرحلة الشباب هى مرحلة تكامل النمو الجسدى ونضوجه واكتمال طاقته ، وبالتالى لكى تتجه الشخصية إلى سلوك قروى وممارس وتلتزم بالتعقل والاستيعاب تحتاج إلى كثير من الترويض والوعى . والتحلى بالصبر . والتفهم فى اتخاذ المواقف المتزنة ، وتبنى الاتجاهات السليمة . إذ كثيراً ما تتغلب النزعات الفورية الغير متبصرة على هذه المواقف وهذه الاتجاهات ، دون التزام بسببية الأشياء بعد استيعاب مضمونها بأبعاده المختلفة . وإنما مجرد الالتزام بشكليتها .

إن حرية الاختيار السلوكى فى العلاقات لابد وأن يتمشى مع واقع العصر الذى تزاول فيه هذة العلاقات . وواقع نهاية القرن العشرين واقع معقد فى علاقاته الاجتماعية نظراً لكثافة هذه العلاقات وتداخلها ، وتعدد أبعادها وتناقضها أحياناً ، ومن ثم حتى يصبح السلوك ناجحاً لابد من التروى والابتعاد ما أمكن عن المجازفات الفورية والتلقائية فى اتخاذ المواقف وتبنى الاتجاهات .

ولابد للسلوك أيضاً من الاعتماد على سببية . وعلى تحديد الغاية والهدف بالنسبة لإبراز الشخصية ولفت النظر إليها إيجابياً ، وأن يخفف من حدة التناقض مع سلوك البيئة الأسرية والمجتمعية المحيطة بالشخصية ، وذلك بفضل المرونة فى المواجهة والتبصر وعدم التذبذب فى المبدأ والاتجاه .

والإصرار على الموقف يكون بعد استيعاب للحقائق واقتناع واعى بها . وملتزم بتعليل ومحاجة حكيمة . ولايكون منطلقاً من العناد ، بمعنى الإصرار لمجرد الإصرار . وعليه حين يبدو له خطأ موقفه وعدم اعتماده على سببية يكون الرجوع إلى الموقف الحق ، والاعتذار عن الخطأ دون حرج أو شعور بنقص .

والموقف الحق . هو الموقف الموضوعى المسبب برؤية وتعليل مقنع فى جوهره : وحينما لاتتضح الرؤية فى الموقف من الأفضل التروى كما ذكرنا . وعدم التسرع حتى تنجلى الرؤية ، ويسهل التحديد الصحيح .

لاشك أن طبيعة عصرنا هذا . عصر الأسس العلمية ، والمعرفة التقنية . عصر التقدم والتصنيع ، تحتاج إلى مزيد من الممارسة فى السلوك الاجتماعى وأيضاً الأسرى . الشخصية التى تتبنى الممارسة والتروى هى أكثر قرباً من النجاح فى هذا العصر من الشخصية الانفعالية المجازفة . اختفت الفروسيات العضلية لتتفجر قدرة العقل المتحكمة فى الأشياء . وبات الأكثر سيطرة هو الأكثر وعياً ، وعلما ، وتفهما . وممارسة ، وروية ، حيث تقل مواطن زلله ، وتندر احتمالات انزلاقه . لأنه يتحرك على أرض صلبة ، بينما تتضاعف زلات . ويكثر انزلاق المندفع المنفعل المجازف . وكثيراً ما كنا نلاحظ (فى الجامعات الأوروبية حينما أتيحت لنا فرصة ممارسة التدريس فيها) من خلال المقارنة بين أبناء مجتمعاتنا النامية الفتية ، أن ذكاء أبنائنا وقدرتهم تفوق أبناء هذه المجتمعات الصناعية ، ولكن أبناء المجتمعات الصناعية كانوا يستغلون تسرع أبنائنا فى الحكم على الأشياء وعدم الاستيعاب الكامل لها والاكتفاء بالنظرة السريعة الفورية ، والاندفاع فى التعبير عن المداول ، مع انفعال ودون ضبط للنفس وغيبة الصبر وضعف قدرة الاستدرار فى المسيرة العلمية ، لكى يفوقوهم ويتفوقوا عليهم فى مراحل الدراسة ، اللهم إلا بالنسبة لفئة من أبنائنا استطاعت أن تحول الانفعال والاندفاع إلى طاقة بنـــاءة مواجهة أكثر تبصراً للمواقف

العلمية وجوهر البحث فيها . وإلى قدرة أكثر مرونة ووعياً في تفهم طبيعة العلاقات وممارستها .

السلوك المنطلق من الانفعال والاندفاع والمجازفة في العلاقات سلوك كثيراً ما ينخدع ولا يصيب غايته ، وبالتالي لايتحقق له الاستمرار والدوام ، لأنه معتمد على انطباع شخصي ، ويحتكم إلى الإيماءات وانعكاساتها أكثر مايحتكم إلى سببيات موضوعية ، أو يلتزم بهدف صحيح . فتحية غفل عنها ، أو عدم رد على تحية أو زيارة أو وجه منقبض قد يكون لذلك تأثيراً جذرياً يقوض جوهر علاقة طويلة الأمد بين شخصين أو أسرتين حينما يكون منطق السلوك انفعالى النزعة واعتباطى الموقف والهدف ، فتصبح العلاقات الاجتماعية علاقات مهتزة ، ومتقلبة ، خاضعة للأهواء لا أكثر ولا أقل ، بينما السلوك الواعى الممارس المعبر عن مواقف أصيلة هو السلوك الذى يصل إلى غايته ويضمن له الاستمرار والدوام . بفضل عدم تحكم النزعات الفورية فيه ، والإيماءات العشوائية ، لما فيه من قدرة تغاضى عن صغائر الأمور وتوافهها والرد على الإيماءة الخاطئة بما يضمن تصحيحها وتحاشيها فى المستقبل ، لأنه سلوك يترفع بهدفه عن الشكليات والعفويات .

هذا السلوك الواعى الممارس الحكيم المتفتح المرن فى العلاقات الاجتماعية بما يضمن استمرارها وتدعيمها ، وبالتالى بقاء التضامن للأسرة وبين الجماعات وفى المجتمع بصفة عامة ، هو السلوك الذى حثنا ديننا الحنيف على تبنيه وجسده لنا رسولنا الكريم (صلى الله عليه وسلم) بسلوكه النبوى الشخصى فى عصر النبوة ، ودعانا إلى اتباعه فى كل المناسبات . ويا حبذا لو تأمل شبابنا ذلك فتمثل بالمبادىء القرآنية فى سلوكه . واقتدى بالرسول فى تطبيق هذا السلوك ، وكيف كان صلوات الله وسلامه عليه يقنن العلاقات بالمعايير الصحيحة الواعية ، ملتزماً بمواقف وأهداف سليمة أصيلة بعيدة عن العفويات . ليس فقط فى علاقاته مع من آمن به ،

بل حتى مع عدوه حين الدعوة منطلقاً من المبدأ القرآنى السامى : «**ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن**»(١) الكلمة الطيبة . الرد على السيئة بالحسنة ، التخلى عن الفظاظة والغلظة ، فظاظة اللسان . وغلظة القلب . التحلى بالصبر وشجاعة الممارسة وقهر النفس . الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وسلوك الرسول وصحبه نموذجاً خالداً لشبابنا إذا ما أراد البحث باسم حرية الاختيار عند الاختيار الذى يضمن لسلوكه الأسرى والمجتمعى فى علاقاته — بفضل التبصر ، والتروى . والممارسة الواعية — مزيداً من النجاح . وتحقيق الغاية المنشودة . سواء بالنسبة لتأصيل شخصيته ، أو تدعيم روابطه الأسرية والاجتماعية بما فيه خير أمته ، بل والإنسانية جمعاء .

***

---

(١) النحل : ١٢٥

الفصل الثانى

فى الإسلام بين دعاته وأدعيائه

- الدعاة .. القرآن مصدرهم والرسول صلى الله عليه وسلم قدوتهم
- الأدعيـــــاء .. الخلفيات منطلقهم ، والتغميض رايتهم ، والضـلال نهايتهم
- من الخصوم الى الأعداء
- الدعاة والأدعياء والخصوم والأعـداء بين الأمس واليوم
- الدعاة والأدعياء والخصوم والأعـداء

قبل تحديد الدعاة ، وعزلهم عن الأدعياء وتعريف الخصوم ، والأعداء ، نبدأ بتجسيد اطار القضية ، وأرضيتها ، وهل هى قضية الإسلام ، أم قضية المسلمين ؟ وهل يعتبر قصورهم فى التطبيق وبشريتهم فى المواقف ، على أنه قصور فى مبادىء الإسلام ؟

بسم الله الرحمن الرحيم

الاسلام بين دعاته وادعيائه وخصومه وأعدائه

تمهيـــد :

• أهي قضية الإسلام ، أم قضية المسلم الإنسان ؟

تطرح القضايا الإسلامية الآن ، وكأنها قضايا مصير الإسلام ، وترتفع الأصوات فى كل مكان من الخوف على نهاية هذا الدين وإذابته أمام أمواج هذا العصر المادى الطاغية ، وتحت سماء سحبه وضبابه اللائى الملحد . وهذا ليس بجديد فى كل مرة يتأزم المسلم كإنسان ، يعتقد أن الأزمة أزمة دينه ، وفى الواقع الأزمة أزمته ، وفى كل مرة تعترّيه قضايا التكيف ، والمعايشة ، والمواجهات الحضارية فى الحياة اليومية ، يرتفع صوته واإسلاماه ؟ مع أن القضية قضيته . إنه يحاول أن يصدر الدين ويحتمى فيه ، بدلا من أن يتصدر هو ويواجه باسمه ، ويرفع رايته . إن الوهن يسيطر عليه فى بداية الطريق ، حينما ينطلق من مبدأ الشك فيما لديه ، وفى سلامة منطلقه الروحى وصلاحية تطبيقه ، وصحة هدفه. القضية إذن هى قضيتنا نحن معشر المسلمين ، والأزمة أزمتنا نحن البشر فلا نحمل الإسلام دون دراية وزرنا ، ومطامعنا ، وأهوائنا ومذاقنا ، وتقلباتنا ، ونزعاتنا ، واتجاهاتنا ، ومآربنا ، وأهدافنا المصلحية ، فنعمم الأحكام ، ونعوم الصادق فى الباطل ، فيتكلم المسيء بلغة البرىء ويتقمص الجاهل دور العارف ، والمتهور مكان العاقل ، ونغوص فى سحب الغموض والالتباس . الاسلام بخير ولو أن مصيره قرر فى كل مرة من خلال أزمات تعترى المطبق الإنسان لما وصل إلينا اليوم ، ولا انتهى عند أول أزمة ، وذاب فى بوتقة الأحداث التاريخية . الإسلام وقد عبر العصور وبعد أربعة عشر قرناً من المسيرة الخالدة ، يشهد العالم أنه قوى

بمبادئه ، صامد كالصخر ، أصيل بعطائه ، صالح بوجوده صحيح ببقائه واستمراره . سيداً يكسب الأرض، ويحقق النصر فى القلوب المتدافعة إليه فى كل القارات . الإسلام دين شامل متجاوز لكل الفلسفات الأساسية التى ابتكرتها العقول البشرية قبله وبعده ، ومن باب أولى لكل الأديان السابقة له ، والتى احتواها كمراحل لوحدته وتكامله .فهو الدين الأكمل الذى أصل الروح ، وهذب النفس ، وأسعد الجسد . أصل الروح ببقائها بعد الجسد المادى ، وهى التى تمثل أمر الله ، وإرادته الشاملة .وتسيره للجسد بقوانين الحياة الدقيقة الحكيمة ، ومن هنا كان الإنسان مسيراً حسب أمر الله وإرادته . وهذب النفس بإعطائها أساساً للتنشئة السوية ، لها ماكسبت وعليها ما اكتسبت ، فحملها المسئولية الكاملة بعد أن أنار وحدد لها معالم الطريق ، على أن تمثل عبر الحياة إرادة الإنسان المخيرة التى سوف تحاسب نتيجة لإشرافها على تنسيق علاقة الروح (أمر الله وإرادته المسيرة للشمول) بالجسد ، والسير به تفصيلا نحو الطريق السوية التى أرادها الله فإن نكصت حوسبت ، بعد أن ألزمت (١) . وأسعد الجسد بحثه على التذوق الوسطى (وهو الأمثل) للحياة ، فى إطار تشرف على تنسيقه النفس صاحبة المسئولية بين جسد يبحث عن الإشباع بمتطلباته البيولوجية وروح ترمز إلى التسامى من خلال آفاق متجاوزة للاستهلاك . أى دين أمثل وأحكم وأكمل من الإسلام. القضية ليست قضيته ،نكرر القول ونؤكده، ولكن القضية قضيتنا نحن . كيف نفهم الإسلام ، ونتعرف عليه ، بمافيه وفاءاً له ، ثم كيف نعرف به ، وندعو له بمقتضى المنهج الذى حدده، وهو يعتمد على « الحكمة ، والموعظة الحسنة والمجادلة بالتى هى أحسن » ومن ثم يسهل علينا الحوار والإقناع والتطبيق . كما يسهل علينا مواجهة الخصوم ، وكشف الأدعياء ، ومنازلة الأعداء .وهذا يتطلب تحديد الدعاة وتميزهم عن الأدعياء ، والخصوم والأعداء ، ولنبدأ بتحديد الدعاة .

---

(١) وهذا ما نميل اليه فى الاجابة اختصار على التساؤل المطروح دائما عن الجبر والاختيار ، هل الانسان مسير أم مخير ؟ . نعم هو مسير على مستوى الروح أمر الله وارادته الشاملة ومخير على مستوى النفس ارادة الانسان حسب تنشئته ، وسلوكه الذى ارتضاه فى التنفيذ سوى أو غير سوى .

المبحث الأول

الدعاة : القرآن مصدرهم
والرسول صلى الله عليه وسلم قدوتهم

إذا كان التحديد اللغوى لتعبير دعاة (جمع داعى) يعنى من يدعو الناس إلى عقيدة أو مذهب أو مدرسة، فالقرآن الكريم وهو الذى يعيننا كعمدة فى التعريف والتحديد للمفهوم يبين لنا الداعى على أنه من يدعو إلى الله ، وإلى سبيله لتكون كلمته العليا « **قل هذه سبيلى أدعوا إلى الله** »(١) والآية « **وادع إلى ربك** »(٢) . على أن تكون الدعوة إلى الله وحده وليس لغيره « **ولا تدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك** »(٣). والهدف من الدعوة هو الهدى ، والنجاة فى الدنيا ، والصراط المستقيم « **وإن تدعوهم إلى الهدى** »(٤) « **ويا قوم مالى أدعوكم إلى النجاة ، وتدعوننى إلى النار** » (٥) ، « **وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم** »(٦) ثم حدد لنا القرآن منهج الدعوة فى الآية الكريمة « **ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن** »(٧) وكذلك حث على الاستجابة للداعى واتباعه « **يا قومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به** »(٨) وأكد لنا كتاب الله أن هذه الدعوة إلى الله هى دعوة الحق « **له دعوة**

---

(١) يوسف : ١٠٨ .
(٢) القصص : ٨٧ ، الحج : ٦٧ .
(٣) يونس : ١٠٦ .
(٤) الاعراف : ١٩٣ .
(٥) غافر : ٤١ .
(٦) المؤمنون : ٧٣ .
(٧) النحل : ١٢٥ .
(٨) الاحقاف : ٣١ .

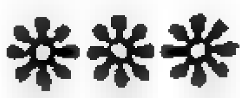
الحق »(١) هذه الآيات البينات وآيات أخرى ذكرت فيها الدعوة والداعى توضح لنا معالم الطريق وتضع لنا الأسس والمنهج والهدف، إنها الطريق التى سلكها وسار على نهجها الداعى الأول رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم قدوة الداعين ورائدهم ، التزم بأصول الدعوة فكان الداعى إلى الله جل وعلا ، وللهدى ، والنجاة والصراط المستقيم كما التزم بالمنهج فكانت الحكمة وسيلته ، والموعظة الحسنة حواره ، والمجادلة بالتى هى أحسن قدرة إقناعه . كان الداعى الصادق مـــع ربه ، والصادق مع قومه والصادق مع أسرته وأعزائه ، والصادق مع نفسه . ما استعمل رسول الله صلى الله علية وسلم لفظاً نابياً فى دعوته ، ولا كان فظاً غليظ القلب . كان يواجه برحابة الصدر وصدق الكلمة الهادئة . كان يصر على الإقناع من خلال الحوار بقدر إصراره على عدم التزحزح قيد أنملة مما صمم على تبليغه ، وأمر به من ربه ولو خير بين ملكية الشمس والقمر والسماء والأرض ما اختار إلا رسالته . أسس بوحى من ربه المدرسة الأولى للدعوة سراً فى دار الأرقم — كما هو معروف — وكان فى إمكانه وهو نبى الله ورسوله أن يجهر بها ساعة نزولها ، ويفاجىء قومه بالتحدى السافر والتهديد ، والوعيد بمجرد خروجه من غار حراء وبعد الآية الأولى من القرآن ، ولكن سلك أروع سلوك لمخاطبة الإنسان فى تبليغ الدعوة؛سلك السلوك البشرى ، والمخاطبة حسب العقول ، وطاقتها الفكرية وأهليتها وإلا كانت دعوته مجرد مفاجآت ، وطلاسم وألغاز لا يعرفها إلا أهل السماء ، ولكن الدعوة تعنى أيضاً أهل الأرض من الناس . خاطبهم قدر عقولهم وما يتدبر عقل الإنسان إلا ما يراه ويحسه ويسمعه مما يحيط به من جبال ، ووديان وإبل؛وخضرة وسحب ، وضباب ، ورعد ، ونار تحرق ، وأشجار تظلل ، وأنهار تروى ، وماء يشفى ويبعث الحياة .علمنا رسول الله كيف يتحرك الداعى فى دعوته مرحلياً ، ويستشهد بالملموس والمجسد ويبتعد عن الاعتباطية

---

(١) الرعد : ١٤ .

والعفوية مهما كانت صلاحية الكلمة . إذا كان المخاطب (بكسر الطاء)، رسول ونبي فالمخاطب (بفتح الطاء) ليس بالرسول والنبي وإنما مجرد بشر له حدود فى الرؤية والفكر ، والحوار . كما علمنا أيضاً محمد عليه السلام ، كيف أن سلامة المنطق فى دعوة مهما كانت على حق لا تكفى فى حد ذاتها ، ولا يتكل على مبدأ أنني على حق وكفى وإنما لابد من التحرك ، وبمنهج واعى يضمن صلاحية التطبيق ليؤكد صحة المنطلق وحينا نستوجب التاريخ سنرى كم من دعوات كانت تتمتع بسلامة المنطلق ، وتمثل الحق ، ولكن منهجها فى التبليغ والحوار والإقناع لم يلتزم بمنهج القرآن . فكانت المآسى الدموية الكبرى قديماً وحديثاً ، إذ من الخطأ الاعتقاد أنه يكفى لدعوة أن تكون على حق لتنجح ، وتنحنى أمامها الرؤوس وتسلم بها الأفئدة . بل لابد لها من منهج صالح فى التطبيق اقتداء برسول الله رائد الكلمة الطيبة ، والحكمة ، والموعظة الحسنة والمجادلة بالتى هى أحسن . ولعل من روائع السلوك المحمدى فى الدعوة أنه لم يقصرها فى مدرسته الأولى الخالدة على فئة معينة من البشر تحتكرها ، فكان كل مسلم صادق فى إسلامه هو من دعاته لا تفريق ولا احتكار ولا تميز إلا بالعمل الصالح ، ولا فضل ولا تكريم إلا بالتقوى . التزم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالدعوة قبل أن يلزم بها ، وبه اقتدى صحبه ، رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه . ومع النجاح الأول للدعوة ، وانتقالها من السرية فى دار الأرقم إلى الإعلان والجهر كان طبيعياً أن يكون لها انعكاس على خصومها ، وأعدائها وإصداد عند مرضى التماوب من الانتهازيين ، الأكلة فوق كل الموائد ، فعرفت (شأنها فى ذلك شأن كل دعوة اتجهت إلى مخاطبة البشرية) نماذج شتى من المواجهات والصراعات ، مواجهات مضمرة على مستوى الأدعـياء ؛ ومواجهات صريحة على مستوى الخصوم ، وصراع وتحدى سافر ومحاربة على مستوى الأعداء ، كلها نمت فى تربة الهجرة وبعدها ، وخلال المواقع الحاسمة من أجل الحق الذى انتصرت رايته بفتح مكة ، واكتمال الدين الحنيف ، وإتمام نعمة الخالق على

خلقه . ثم سلم رسول الله صلى الله عليه وسلم الداعى الأول الراية ، راية الحق والصدق والهداية ، والنجاة ، والصراط المستقيم لصحابته وأتباعه الأوفياء ليحاربوا ، ومن خلفهم جماهير المؤمنين ، الأعداء إن لم يذعنوا للحق ، ويقاتلوهم إن قاتلوهم . كما يجادلوا الخصوم بهدف الإقناع حتى يعودوا إلى الصواب ، وفى نفس الوقت عليهم أن يحترسوا من الدخلاء الأدعياء . نجح صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى محاربة الأعداء وقهرهم ، ومجادلة الخصوم وحصارهم ، ولكن طبيعة الالتحام والتداخل بين المواقع وسخونة الصراع والمواجهات وتعدد الجبهات وتنوعها ، أعطى فرصة للأدعياء أصحاب الصوت المضمر بخلفياته المقنعة ، من عشاق العمل فى الظلام ، والتغميض والالتباس وأرباب الزخارف ، والألوان من النفوس المريضة ، أن يتحركوا فوق أرض المواجهة ليتجهوا بها من دعوة فى سبيل الحق إلى فتنة ابتدعوها ، وجميع صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم منها براء ، وسوف نفصل القول فى ذلك بعد أن نحدد على التوالى مفهوم الأدعياء والخصوم والأعداء حتى يعرف لكل فئة معقلها وتتضح معالمها .



المبحث الثانى

الأدعياء : الخلفيات منطلقهم ،
والتغميض رايتهم ، والضلال نهايتهم

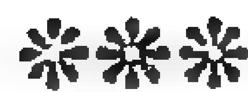
التحديد اللغوى للأدعياء (جمع دعى) وهو الذى تبنيته أى جعلته لك ابناً ، أو المتهم فى نسبة وانتمائه وهذا المعنى الأخير يؤهل للمعنى الحركى للأدعياء على المستوى الاجتماعى انطلاقاً من المعنى الأسرى ، والقرآن الكريم وضع لنا معايير للمفهوم من خلال إطاره وربطها به ، وهو إطار الغموض والالتباس فى الانتماء ، فلقد ورد تعبير أدعياء فى آيتين كريمتين فى القرآن وفى كل آية تعنى واقعة محددة ، ومع هذا فمن روائع القرآن رغم أن المقصود شيء محدد فى الآيتين ، أن قرن مفهوم الأدعياء بإطار عدم الوضوح فى الرؤية والإبهام ، بمعنى لايمكن تصور مفهوم أدعياء إلا فى إطار الالتباس والتغميض . تقول الآية الأولى. « **ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه ، وما جعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهن أمهاتكم ، وما جعل أدعياءكم أبناءكم ، ذلكم قولكم بأفواهكم ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل** »(١) أما الآية الثانية فهى « **وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه ، فلما قضى زيد منها وطرأ زوجناكها لكى لايكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم** »(٢) ... إذا كان المراد فى

---

(١) الاحزاب : ٤ .
(٢) الاحزاب : ٣٧ .

الآيتين على سبيل التعين توضيح مكان الأدعياء فى النسب ، وما يترتب على بنوتهم أو انتمائهم ورفع الاشكال فى الأحكام ، فهم ليسوا بالأبناء فى الآية الأولى ، وإنما ذلك قول بالأفواه ؛ وفى الآية الثانية رفع الحرج عن المؤمنين بالنسبة لأزواج الأدعياء ، واتخاذ الطريق الصائب ، وهو بالزواج منهن كمبدأ نزيه وصريح فى العلاقة أمام الله ، فالذى يعنينا فى تبنى المفهوم بعده الاجتماعى ، حين تطبيقه على فئة تغميضية ، التباسية البيئة والمنطلق ، حيث نجد الآية الأولى بدأت بلفت النظر إلى الالتباس بل والتناقض « **ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه** » وفى الآية الثانية إخفاء ماالله مبديه ، وخشية الناس بدلا من خشية الله أيضاً نرى الالتباس ، والخطاب لمن ؟ لرسول الله ونبيه وأكرم البشر ، وقدوتنا فى السلوك . يوجهه الله : يامحمد وأنت أكرم البشر وأقربهم إلى . هذه هى الطريق . من لنا يا إلهى بنصح ورفع للالتباس أقدس من هذا النصح نقتدى به ؟ لئن كان القرآن قد طرح موضوع الأدعياء فى وقائع معينة ، فاجتهاداً واستلهاماً من نوره . وهديه يمكننا أن ننطلق من القرآن فى تطبيق المفهوم على الفئات الاجتماعية التى تجسد الأدعياء كفئة بيئتها الالتباس والتغميض . هم أولئك الذين يعيشون تحت ضباب الرؤية . ويعشعشون فى الظلمات ويتحركون تحت ستار الإبهام بقلب مزدوج وظاهر يخالف الباطن إذا كان الدعاة يتمتعون بسلامة المنطلق . وذلك بالتزامهم بمبادىء الإسلام قلباً وقالباً : دعوة إلى الله حيث الهدى والنجاة والطريق المستقيم . فالأدعياء يتقمصون زيف المنطلق وذلك بالتزامهم بمواقف ذاتية ومآرب شخصية ، تنعكس من خلال خلفيات مقنعة لنعرات أو لشعوبيات أو لإسرائيليات أو إشراكيات أو لحماسات الجاهلية بمختلف مشاربها . وإذا كان الدعاة يؤكدون صلاحية التطبيق وذلك بتبنيهم لمنهج القرآن فى الدعوة المجسدة فى الحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتى هى أحسن ، فالأدعياء يؤكدون سوءه وفشله وذلك بالتجائهم إلى العفوية ، والعشوائية والاعتباطية فى التطبيق من خلال شعارات جوفاء فارغة المحتوى ، وألفاظ منمقة ، تعنى كل شىء ولاتعنى شيئاً محدداً . وإذا كان الدعاة يفخرون بصحة الهدف وصدقه

وانتصاره فى النهاية بفضل ما يحققه من مقاصد سامية ، ورضاء عن النفس ؛ وعن الآخرين وإسعاد الإنسان بضمان توازنه روحياً ومادياً : دنيوياً وأخروياً : فالأدعياء يجنون بطلان الهدف وكذبه وضلاله فلا يجرهم البهتان والإشراك والنفاق والخداع والغش والزيف إلا إلى الضياع روحاً وجسداً . الروح عارية جائعة والنفس مهترة قلقة ، والجسد أهلكته الدنيا وأمرضته بملذاتها ومتاعها . الأدعياء وقد تحركوا تحت ستار التغميض ، والالتباس ، بل والاستلاب ، (بلغة العصر) زعموا تحقيق كل شىء فى كل شىء ، فكانوا كل شىء فى لا شىء ، هلك من هلك بعد أن أغواه شيطان النفس ، وكفر من كفر حتى بنفسه ، وغالى من غالى فى خصومته المستترة المقنعة الإسلام ليصل بها إلى قمة أعدائه .. ولكن من هم الخصوم ، ومن هم الأعداء الذين يتخذون لهم مخالب من الأدعياء ؟



المبحث الثالث

من الخصوم إلى الأعداء

الخصوم جمع خصم لغوياً ، وهو المنازع المجادل : وفى القرآن الكريم والذى به نهتدى فى التحديد للمفهوم فى هذا الغرض ورد التعبير بصيغة « اختصموا وتختصموا ، وتختصمون ، ويختصمون ، وتخاصم ، وخصم ، وخصيم ، وخصام . . . . » وفى جملتها تعنى التنازع والجدل ، والمجادلة ، كما أن الخصام منه ما يكون مبين ، والخصيم قد يكون لدود ، وكأمثلة من الآيات القرآنية التى جاءت فيها هذه الصيغ قوله « **ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون** » (١) « **قالوا وهم فيها يختصمون . تالله إن كنا لفى ضلال مبين** »(٢) « **وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب** »(٣)« **ما ضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون** » (٤) « **ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألد الخصام** » (٥) « **ولا تكن للخائنين خصيما** » (٦) وهذه الآية الأخيرة تحذرنا من خصومة الخائن ، خصوصاً فى إطار الاحتكام وأن نتمسك بالحق ، وبما أرانا الله فى كتابه . ولقد عرف الإسلام فى عهد النبوة الخصوم الذين نازعوه وجادلوه فمنهم من اقتنع فى النهاية ، وآمن مسلماً ، وحسن إسلامه ، ومنهم من أصر على خصومته ، وعناده ومكابرته ، ليصبح فى ألد الخصام أو يصل إلى مرحلة العداء من الكفار والمجرمين . أو يضمر هذا العداء ويعبر عنه بطرق مخادعة كخناس وسواس ، يدس على الإسلام فى قلوب الناس ،

---

(١) الزمر : ٣١ .

(٢) الشعراء : ٩٦ ـ ٩٧ .

(٣) سورة ص : ٢١ .

(٤) الزخرف : ٥٨ .

(٥) البقرة : ٢٠٤ .

(٦) النساء : ١٠٥ .

بشيطنته الماكرة : فيشككك فى الدين ويشوه مبادئه لصالحه ، ولمتعته الذاتية ليصير من الأعداء المقنعين من شياطين الإنس . وهكذا نرى أن الأعداء هم فيض من الخصوم ممن دفعتهم خصومتهم اللدودة للإسلام كى يصلوا بها إلى العداء ظاهراً أومضمراً ، كفاراً ، ومجرمين ، وشياطين للهدم ، للضلال ، للإغواء . للإغواء . فالأعداء كما حددتهم الآيات القرآنية هم خليط من الكفار والمجرمين والشياطين كقوله تعالى « **وكذلك جعلنا لكل نبى عدواً شياطين الإنس** » (١) إلى آخر الآية « **إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً** » (٢) وبالنسبة للكافرين نذكر « **إن الكافرين كانوا لكم عدواً مبينا** » (٣) وعن المجرمين من الأعداء قوله : « **وكذلك جعلنا لكل نبى عدواً من المجرمين** » (٤) ولم يكتف القرآن الكريم بتحديد أنواع الأعداء الرئيسية ، وفئاتهم دون أن يشير إلى نوع من الأعداء يحتاج إلى الحذر ، والاحتياط ، لأنه فى عقر الدار فعداوته معقدة ، متداخلة فى الانفعال ، والعواطف ، ومن ثم نصح القرآن المتفهم لمشاعر الإنسان وعمقه بإذابة هذه العداوة ، وتجاوزها لصعوبة تحملها ، وقسوتها حيث قال « **يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم ، وإن تعفوا ، وتصفحوا ، وتغفروا ، فإن الله غفور رحيم** » (٥) إن هذا التصنيف الدقيق لأنواع الأعداء وفئاتهم حسب درجات عداوتهم ، وكذا الخصوم ومستوياتهم كما حدده لنا القرآن ، والمواقف التى تتخذ حيالهم ، يبرز لنا أصالة الرؤية القرآنية ، وواقعيتها والتزامها بمقاييس موضوعية لتوجيه المسلم فى علاقته ، فيميز عدو الله وعدونا بعنف عدائه وشدته ، وأن لا نتخذ منه أولياء مهما كانت الظروف « **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء** » (٦) ولقد أكدت حتى الأحداث الأخيرة

---

(١) الأنعام : ١١٢ .
(٢) فاطر : ٦ .
(٣) النساء : ١٠١ .
(٤) الفرقان : ٣١ .
(٥) التغابن : ١٤ .
(٦) الممتحنة : ١ .

فى تاريخ أمتنا العربية الإسلامية صدق هذا المبدأ وكيف تكون النتائج ، حينما نتخذ من أعدائنا أولياء ولا نحترس فى علاقاتنا معهم ، ويتصدر فى هذا النوع العنيف الشديد فى عداوته معنا كمؤمنين « الناس من اليهود » فحينما تؤكد لنا الآية القرآنية « **لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود** »(١). تنير لنا الطريق فتميز بين نوعين من اليهود ، نوع آمن بالكتاب والتزم بتعاليمه الحقة وهم « أهل الكتاب من اليهود » ونوع آخر أطلق عليهم « الناس من اليهود » بمعنى من اتخذوا اليهودية كشعار وتسمية لا أكثر ولا أقل وخير مثال لهم فى القرن العشرين « الصهاينة » أدعياء اليهودية ، بعد أدعياء اليهودية فى عصر الرسول عليه السلام فعينهم لنا بعداوتهم الشديدة لنا ، ولو كان القرآن يريد التعميم على كل اليهود من أهل الكتاب فى الماضى والحاضر لقال (لتجدن أشد أهل الكتاب عداوة للذين آمنوا اليهود) وإنما قال « الناس » من غلاة التعصب باسم اليهودية فى عدواتهم للمؤمنين وهم الذين ضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ، هم أدعياء اليهودية فى عهد المسيح عليه السلام واليهودية منهم براء ، وهم أدعياء اليهودية فى عهد محمد عليه السلام ، وهم أدعياء اليهودية فى القرن العشرين ، باسم صهيونية عنصرية سفاكة للدماء وباعثة للدمار . ولا علاقة لهم باليهودية الحقة لأهل الكتاب . ومما يذكر للقرآن ودستور ديننا الحنيف كأروع تجسيد للمعانى الإنسانية تصويره للعداء فى حد ذاته على أنه ليس من الصفات الإنسانية المستمرة والمتأصلة فى طابع البشر الذى جبل على الخير . فعلينا أن نتجاوز العداء حينما يستوعب موضوعه بإرادة الله . وهذا التجاوز وصفه جل وعلا بأنه نعمة منه ، فما أجمل العودة إلى التسامح وإذابة العداء ، حالما يستنفذ أغراضه بإحلال جو المحبة والود ، والتكامل الإنسانى محله ، قال تعالى « **واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم** » (٢) بل نجد القرآن وضح لنا الطريق وبين لنا المنهج فى كيفية الإذابة للعداوة والتغلب عليها والانتقال إلى الولاء والمحبة حين قال : « **ولا تستوى الحسنة ولا السيئة** ،

---

(١) المائدة : ٨٢ .

(٢) آل عمران : ١٠٣ .

ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم » (١) ولكن العلي القدير أكد لنا أن هذا الطريق ليس بالسهل ، ولا بالهين ، ولا يقدر عليه إلا صابر واسع الصدر حين أضاف سبحانه وتعالى « **وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم** » (٢) وهكذا تدرج بنا القرآن من الخصوم إلى الأعداء في التحديد والتصنيف والتوضيح ، فعين الخصوم بأنواعهم المختلفة . وأن منهم المبين . واللدود الذي يصل بخصامه إلى درجة العداء ، إن لم يحدث له اقتناع وعدول عن الخصام والعودة إلى الحق بفضل الحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن . كما أن الأعداء حدد لنا فئاتهم الرئيسية ، الكفار ، والشياطين من الإنس ، والمجرمين كما أشار إلى نوع من العداء علينا أن نحذره ولا نقع فيه لأنه يمزق القلب والعاطفة ألا وهو عداء الأزواج والأولاد في عقر الدار ، ونصحنا بإزالته بفضل العفو والصفح والمغفرة . كما أنه صدر في طليعة الأعداء عدو الله وعدونا ، وهو العداء المبين ، وكذا الغلاة من أدعياء اليهودية بعد أن استبعد انتسابهم لأهل الكتاب من اليهود وإنما مجرد أناس متعصبين سماتهم الذلة ، والمسكنة وبضاعتهم إغضاب الله ، وشدة العداء للمؤمنين . من هذا كله يتبين لنا موقع الخصوم من الأعداء ، وسوف نحاول من خلال نموذج محدد تجسيد هذه المفاهيم كيف انطبقت وطبقت بشكل ملموس على مستوى فئاتها البشرية وكيف كانت المواجهة وطبيعة الصراع بين دعاة الإسلام وبين الأدعياء والخصوم والأعداء بالأمس لنستنير بذلك في مواجهات اليوم ، وصراعية الحاضر ، وسوف نتبنى كنموذج ما سمي بالفتنة الكبرى في الإسلام .

***

---

(١) فصلت : ٣٤ .

(٢) فصلت : ٣٥ .

المبحث الرابع

الدعاة والأدعياء والخصوم والأعداء

بين الأمس واليوم

(المواجهة الكبرى للدعاة ، والفتنة الكبرى للأدعياء)

ليس هناك نموذج أصلح فى الاستشهاد لتجسيد طبيعة المواجهة بين الدعاة من جهة والخصوم والأدعياء والأعداء من جهة أخرى ، بالأمس من الفترة التى تلت وفاة رسول الله ونبيه الأكرم محمد عليه السلام : لقد كان الدعاة أكثر إصراراً على تبليغ رسالة السماء التى حملها رائدهم ، بعد أن حملهم بدوره عليه السلام مسئوليتها المباشرة وتركها شورى بينهم . إن طبيعة المؤمن الصادق فى إسلامه الالتزام . لقد مات عليه السلام وكان على صحابته أن يسيروا بدعوته لإعلاء كلمة الله الحى الذى لا يموت . كل صحابى من الصحابة الأبرار أهل نفسه للمواجهة لا يهاب الاستشهاد ولا يتهيب فى الحق ولا يخشى فى الله لومة لائم ، لا مجاملة ، ولا تهاون ، ولو كان ذلك فيما بين الصحابة أنفسهم . الالتزام كان مبدأ الجميع والإصرار كان منهج الجميع ، ونجاح الدعوة كان هدف الجميع . وهنا نصل إلى طرح تساؤل هام ظل حتى اليوم يتردد مضمراً فى الأفئدة لا يزعزع الإيمان الصادق المستنير بنور الله ، ولكن يوجس فى القلوب المريضة أو الضعيفة ويقلق النفوس المتأرجحة . هذا التساؤل هو كيف يفتن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنهم المبشر بالجنة ؟ ويتفرقوا ، وقد أكد القرآن أن من يفرق كلمة الدين الرسول منه براء «إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم فى شىء»(١) وكيف

---

(١) الأنعام : ١٥٩ .

مقتل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بعضهم بعضاً ، والإسلام عرفنا بمصير القاتل فى جهنم وبئس المصير ؟ كيف يبشر بالجنة، ويؤهل بعمله لجهنم فى نفس الوقت ؟ هكذا حاول البعض أن يطرح التساؤل مغرضاً ، أو متجاهلا ، أو جاهلا أو متسرعاً ، كيف صحابة رسول الله عليه السلام وأقرب أعزائه يصلون إلى هذا المستوى ،وهم فى هذا العهد القريب من الإسلام، وما زالت روائح الرسول الطاهرة العطرة ، ووجهه المشرق المنير ، وأصداء صوته الخالدتعمر سماء الجزيرة العربية ؛ كيف عثمان ، وعائشة ، وعلى ، ومعاوية ، وبقية أحـباب رسول الله وصحبه يقاتل بعضهم بعضاً ، ووجهاً لوجه ؟ كل هذا يحدث ونزول الوحى على بعد أعوام ، وقبر الرسول عليه السلام على بعد أمتار ؟ وتستمر التساؤلات فى هذا البعد الواحد ، دون أن تطرح بقية الأبعاد. كمثال منها كيف أن الإسلام وهو ما زال فى مهده لم ينته مع ماعرفوه بالفتنة الكبرى ؟ وقبل أن نسترسل فى العرض نستسمح أن عدلنا عن تسمية « فتنة كبرى » مع تقديرنا الكامل لمن تبنوها كعنوان تاريخى لهذه الفترة من تاريخنا . إن كان ولابد من الاحتفاظ بالتسمية فليضف إليها « الفتنة الكبرى للأدعياء » أما بالنسبة للصحابة جميعاً فهى « المواجهة الكبرى للدعاة » لأننا نبرأ بأصحاب رسول الله الأقربين ، أن يفتنوا بهذه السرعة ، وهذه السهولة حباً فى الدنيا . إنهم لم يفتنوا ، وهذه كلمة حق ، والإصرار على استعمال مفهوم « فتنة » لن يستفيد منه إلا أدعياء الفتنة فى كل العصور فضلا عن كونه لا يفى بالعطاء التاريخى الصحيح لهذه المرحلة اللهم إلا لدى فقراء الفكر ، وضعاف التحليل لعملية التاريخ ، وفلسفته ، ممن يبثون رياح الشك عن قصد أو عن غير قصد فى قلوب المسلمين ، ومن يميل إلى الإسلام ويسعى إليه . ولقد آن الأوان ، إن أردنا للإسلام أن يعرف تاريخه فى إطاره الصحيح لا من خلال تصورات قاصرة ، أو مغرضة أو سطحية ، أن نسمى الأمور بمسمياتها . ومن ثم نؤكد أنها ليست « فتنة كبرى » فى مهب الأحداث ، إلا عند الأدعياء،

وحسب صنعهم وبغيتهم .. وإنما هى مواجهة كبرى فى منطلق الحق والإصرار والالتزام بكلمة الله ، وإعلائها ولو بالاستشهاد فى سبيلها ، ولو بالتصدى لأقرب الأقرباء ، وأعز الأعزاء . تمسكاً بقوله تعالى **« وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ، وبعهد الله أوفوا ، ذلكم وصاكم به »**(١) فمن باب أولى إذا كان فعلا وموقفاً لا مجرد قول. صحابة رسول الله لم يفتتنوا وما كانوا ألعوبة فى يد الأحداث ولا طلاباً لانية أو ذاتية ، ومتاع حياة . مطامع الدنيا لا تفتنهم عن دعوة الله ، ولا تبعدهم عن طريق الحق . لقد واجهوا ، غيرة على مسئولية وضعت فى أعناقهم بعد وفاة رسول الله عليه السلام ، وكل يعتبر نفسه مسئولا أمام الله ونبيه الأمين . وبالتالى حينما نطالب بإحلال تسمية مواجهة كبرى فى الحق وإحقاقه ، والتسابق فى الالتزام بإعلاء كلمة الله بدلا من فتنة كبرى للصحابة فى مهب الأحداث ، إنما نسعى من وراء ذلك لإظهار الوجه الصحيح لتاريخ هذه الفترة الخالدة ، التى لم يشهدها إلا أبطالها . أما الأجيال التالية بعد ذلك فقد صورت لها من خلال أهواء المؤرخين ، ونزعاتهم ، وانتماءاتهم وتذوقهم بل وخلفياتهم المقنعة ، نضف إلى ذلك أن التاريخ فى حد ذاته رغم نسبيته لم يصل إلينا وافياً ، وذلك انهيار جانب من مصادره ومراجع عبر الأحقاب والعصور . ومن ثم فالتاريخ لهذه الفترة رقع ليكتب نسبياً ، بما يضمن تسلسل أحداثه ، ولم يستوجب علمياً على أضواء تعدد الافتراضات الباحثة أساساً عن صحة التاريخ ، ولم يخضع لفلسفة تاريخية تتبع عليته لتكتشف مسيرة حتمية أحداثه .

نسلم اليوم أن يمكن لاتباع إيديولوجية من صنع البشر أن يتواجهوا ليس فقط على مستوى الأفراد ، وإنما على مستوى الأمم أو أمم عظمى : (الاتحاد السوفييتى والصين) وكل يصر على أن راية الحق رايته ، ملتزماً بولائه ، دون ذكر تعبير فتنة ، فلم نسمع بفتنة كبرى بين الصين ،

---

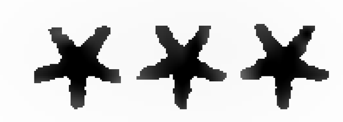
(١) الأنعام : ١٥٢ .

والاتحاد السوفيتي وإنما مواجهات كبرى إذ كل يؤكد أنه هو الوفى والأكثر ولاءاً لعقيدته . نسلم بذلك بالنسبة لهم ؛ وننكره بالنسبة لصحابة رسول الله الأصفياء . ونقول فتنوا . وشتان ما بين عقـــيدة دنيوية قد تؤهل للاكتساب والفتنة ؛ وعقيدة روحية أخروية تسمو بكل مآرب الإنسان ونزعاته . لذا نرى أنه إذا كانت هناك فتنة كبرى مزعومة فى الإسلام فهى فتنة الأدعياء خرجت من عقولهم وحملوها التاريخ بعد أن يئسوا من تحقيق أهدافها متكاملتين مع الخصوم والأعداء . أما بالنسبة للدعاة وهم أصحاب رسول الله فقد كانت بينهم مواجهة كبرى فى الحق . أدعياء الفتنة أرادوها تلقائياً فتنة كبرى تأكل الأخضر واليابس ؛ يتسابق تحت رايتها أعداء الإسلام . بما فى ذلك مضمرى الردة والإشراك لتدميره ، وخصومه لتمزيقه . وحافزهم فى كل ذلك خلفياتهم المقنعة : نعرات كانت أم عصبيات ، شعوبيات كانت أم إسرائيليات ؛ متاهات كانت أم حماسات جاهليات ، أما أصحاب رسول الله فواجهوا واستشهد من استشهد منهم إيماناً بالحق وإعلاء لكلمة الله ، ووفاء لرسول الله عليه السلام. كل شيء أمام الدعوة هوان ، لا قرابة ، ولا صداقة ، ولا معزة ، وإنما كلمة الحق هى المعيار ، والوفاء لرسوله هو المقياس . لا حياء فى الدين ، ولا مجاملة ولا تردد. هذا الإصرار وهذا الالتزام لصحابة رسول الله ، حاول أن ينفذ منه ، ويتسلل على حسابه الأدعياء والخصوم والأعداء . ويجنون الثمار بفضل الكيد ، والبهتان ، والدس بين صفوف المؤمنين بغية تحويل المواجهة إلى فتنة ، والحق إلى باطل ، وإعلاء كلمة الإنسان بدلا من إعلاء كلمة الله . ولكن قد يطرح تساؤل علينا فى ثوب اشكالية هى ، كيف يحدث هذا لصحابة رسول الله ؟ لماذا لم يكتشفوا الكيد والدس ؟ ولماذا أعطوا الفرصة للدخلاء ؟ ونرد على التساؤل : الصحابة ليسوا آلهة ، ولا ملائكة نورانيين ، ولكن بشر ، فإذا كانت بشرية أنبياء جعلتهم فى بعض المواقف يكونون موضع عتاب ومعاتبة من رب السماء ويطلبون العفو لا لنيتهم البريئة ، ولـكن لبشريتهم ، فمن باب أولى نقبل هذا بالنسبة للصحابة والدعاة ، النية هى الأساس «إنما الأعمال بالنيات» فعمل الصحابة

مرده نية صادقة لمواجهة فى سبيل الحق ، ونبرأ بصحابة رسول الله أن تكون نيتهم لغير الله . والاستشهاد فى حد ذاته الدليل الناصع على صدق النية ، فما تعودنا من إنسان أن يضحى بحياته لغير ما نوى أن يضحى من أجله . طلب الاستشهاد هو طلب لقاء الله ، ولو كان المطلب هو الدنيا ومتاعها لفضلوها ، وأداروا ظهورهم للمواجهات. ومرة أخرى إن كانت هى فتنة ، ففتنة الأدعياء من خلالها يبثون سمومهم وينشرون خداعهم ، ويزاولون نفاقهم وغشهم حباً فى انتهاز متاع الدنيا ،ووصولا إلى زينتها. الخصوم تصوروها نزاعاً يعيدهم إلى حماسات الجاهلية يروى الانفعال ونشوتهم إلى القتال ، والأعداء المضمرون استغلوها فرصة لينالوا من الإسلام بإجرامهم وشيطنتهم ، والمجاهرون منهم استبشروا بها كنهاية لديننا ، وإعلاء لكفرهم المبين ، ولكن ماذا حدث ؟ امتصت المواجهة الكبرى نشوة الخصوم وانفعالهم ، وخيبة أمل الأعداء فخرج الإسلام من المواجهة التى كانت فى سبيل الحق ودعوته أكثر قوة ، وجسده أقوى صلابة . اتسعت أرضه ، وعلت رايته ارتفاعاً فى كل بقاعها ، أما الأدعياء فعادوا إلى جحورهم والفتنة تملأ قلوبهم ، بعد أن ضاع أملهم فى أن يجعلوا منها فتنة دائمة يحققون بفضلها أطماعهم واكتفوا بإلقائها لنا فى موكب التاريخ لتساعد كمثال أرادوه على فتن أخرى كبرى ، وصغرى فى مستقبل القرون . إن كان الأدعياء بخلفياتهم المغلفة فى أقنعتهم ، قد وجدوا أرضية خلال المواجهة للإفراج عن نعراتهم وشعوبيتهم ، وإسرائيلياتهم ؛ واشراكياتهم ، ورواسبهم وحماسات جاهليتهم يسقطون عقدهم النفسية من خلال ، فانتهز منهم من انتهز ، ووصل منهم من وصل لإرضاء متاعه القاصر فى الدنيا ، وتزييف المواقع . غير أن حتمية المواجهة وكانت فى سبيل الحق رغم من استشهد فيها من الصحابة وهو صادق النية فى مواجهته ، أعطت للإسلام طاقة هائلة لتحصينه وتحقيقه ضد الأحداث . وخرج الإسلام من المواجهة ليبتلع الأعداء والخصوم والأدعياء فى فتوحاته الكبرى ، ويشرق صبحه ، وتسطع شمسه ،ويعم نور نهاره مشارق الأرض ومغاربها.

ازدهار الإسلام بعد المواجهة هو أكبر تكذيب لمن قال بالفتنة ، إذ لو كانت فتنة حقاً لقوضته فى مهده ، و إنما كانت مواجهة أصيلة دعمته، كما يظهر ذلك جلياً عند التحليل العلمى الرزين للتاريخ ، لا الاكتفاء بمجرد سرد الأحـــداث وتتبع تسلسلها ؛ فالبحث عن صحة التاريخ باستجوابه ، وربطه ببيئته ، ومتناقضاتها ، من خلال تعدد فى الرؤية ؛ والمصادر والمراجع مع اكتشاف عليته على ضوء فلسفته المكيفة لحتمية مسيرته حتى اليوم يؤكد مفهوم المواجهة لا مفهوم الفتنة ، ولن يبقى لنا إلا أن نصحح المفهوم بالنسبة للأجيال القادمة التى سوف تعيش فى عصور الاحتكام العلمى ، وطرح التساؤلات . وتصحيح المفهوم لا يعنى إحلال كلمة بدل أخرى ، وإنما يعنى إعادة صياغة الجوهر بما يتمشى ومنطق مفهوم مواجهة ملتزمين بصحة التاريخ وعليته ؛ لا بسرده وتسلسله . فنعيد النظر فى تفهمنا للأحداث الكبرى الدامية على ضوء ذلك ليس فقط إبان المواجهة الكبرى (أو ما يسمى بالفتنة الكبرى) وإنما الأحداث التى تلتها كنهاية الأمويين ، والدورات التاريخية للعباسيين عظمة وانحطاطاً ؛ وكذا العثمانيين ، وكيف أن تيار الأدعياء لم يتوقف ، كما أن ملحمة الدعاة لم تنطفىء ، والتنازع مع الخصوم ومنازلة الأعداء عبر العصور بمساندة الأدعياء وما خلقوه من فجوات وثقوب فى مسيرة المسلمين لم يتوقف . لقد غزى الأدعياء الحركات الاجتماعية الكبرى التى عرفها الإسلام بسمومهم ، وهى حركات كانت منبعثة فى جوهرها من واقع الغيرة على الإسلام ومن منطلق الإصلاح ، تحت راية الاجتهاد والتجديد ،وسطوا عليها لاستغلالها لمآربهم ، وامتطاها فى النهاية الأعداء ليتخذوا منها جسراً ومعبراً للانقضاض على المسلمين فى مراحل تمزقهم وضعفهم . وهكذا نرى فى دوراتنا التاريخية لأمتنا دورتين ، دورة « نقدية تراثية » فيها يلتحم ويتكامل الأدعياء مع الخصوم والأعداء لمنازلة دعاة الإسلام وهم يدافعون عن معاقلهم وهمهم الأكبر الاحتفاظ بهذه المعاقل بالاستماتة فى الالتزام بعقيدتهم داخل مواقع دفاعية تجسد قارية التراث فى عقر داره ، دون

تطلع أو إشعاع . مسلم مرابط فوق أرضه ينتظر ساعته . وفترة « تنظيمية حضارية » يتفكك فيها تلاحم وتكامل الأدعياء والخصوم والأعداء ، الخصم يحاور بهدف الإقناع أو الاقتناع ، والعدو ينازل من مواقع دفاعية لا هجومية ، وأما الأدعياء فيعودون إلى جحورهم والفتنة تملأ أنفسهم ليبدلوا ثيابهم ، بل وجلودهم ، ويخرجون والزيف شعارهم يتكسبون به ، ويعلنون الولاء الكاذب للإسلام ، بل ويزكون مسيرته فى بعض الأحيان ، وهدفهم الباطل والبطلان ، ومنهجهم النفاق ، والغش ، والبهتان ، ويختلطون بالدعاة يحاججون الخصوم بل ويزعمون منازلة الأعداء . . وتتعاقب دورات الزمان ، ونعيش كما عاش أجدادنا ، جو المواجهة ، والفتنة ، والصراع ، مواجهة بين الدعاة ، ومحاولة لعزل الأدعياء ، ومنازعة ومجادلة مع الخصوم ، وصراع مع الأعداء .



المبحث الخامس

أدعياء الإسلام أقنعة الأعداء

لاتخوف من الخصوم ولا خوف على الدعاة

واليوم ونحن نعيش فى نهاية دورة « نقدية تراثية » لأمتنا ونشهد إرهاصات دورة « تنظيمية حضارية » لها . يؤهل لها شبابنا بتطلعاته وأرضنا بخيراتها ، وتراثنا بعطائه ، وأصالته ، رغم كل الاشكاليات التى وضعت فى الطريق وفرضت علينا بهدف الإعاقة . اليوم وفى هذا العصر الذى بدأت فيه أزمات الحضارة حضارة غيرنا ، حضارة أوروبا بغربها وشرقها ، ومنشقاتها ، تتكشف وتتعدد. أزمة النقد ، أزمة المواد الأولية ، أزمة القيم ، وبكلمة واحدة أزمة الإنسان أمام حضارة الأشياء ، بعد أن اكتفى بالتطلع إلى الأرض ، ودفن إنسانيته بدفنه للآله ، وعرى جسده من روحه بعد أن أدار الظهر للسماء . يلهث منبتاً خلف غرائزةالحيوانية الاستهلاكية ، ورفاهية مزعومة أفرغته من جوهره ، فأصبح يبيع مثله ، وقيمه ، وجوهره ، وأصالته بأبخس الأسعار ، وفى أحط الأسواق أسواق الخداع ، والغش ، والكذب ، والنفاق فى مقابل سلعة يقتنيها ، وإشباع غرائز استهلاكية نماها ، فاستوحشت ، وتنمرت عليه ، فأصبح عبداً لها ، مستلباً ، يتعايش مع هذا الاستلاب ، ويقول بمشروعيته ، فسلمت به بعد الفرد الأسرة ، لتسلم به الجماعات ، ثم الدول ، والقارات . بعد أن صيغ فى ألفاظ منمقة مغرية تشجع مكر الإنسان ، وخبثه وجوانبه السلبية ، وتضاعف من نفاقه وغشه مثل : ألفاظ التكتيك ، والاستراتيجية ، فن الخداع الفورى ، والخداع طويل الأمد . فيض من المسميات التبريرية لسلوك استهلاكى ضائع ، فعم الزيف فى المجتمع ، والجماعات ،

والأسرة ، لينتهى بزيف الذات ، الكل يلهث لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى . فأرض إشباع الغرائز سراب ، ولن يبقى للظهر إلا التراب . ولم يكتف « إنسان حضارة الأشياء »(١) بتلويث مثله ، وقيمه ، وذاته ، وإنما لوث البيئة والفضاء ، تعرى عن معانيه الروحية ، وتنكر للصدق والطيبة والإحسان ، والبر ، تنكر الإنسان للإنسان ، فماتت الضمائر قبل موت الأجساد . فى هذا المعترك الساخن الذى فقد فيه الاحتكام الحق عند الأقوياء والضعفاء على حد سواء . وأصبحت العلاقات ليس فقط بين الأفراد ، وإنما بين الأمم علاقة الذئاب للذئاب ، يأتى الإسلام مجسداً فى دعاته ، معتمدين على سلامة المنطلق بصدق مبادئه وسموها ، وملتزمين بصلاحية التطبيق بفضل الحكمة والموعظة الحسنة ، والمجادلة بالتى هى أحسن ، وواثقين من صحة الهدف الذى هو إسعاد الإنسان فى الدنيا بتعادله ، وتوازنه بفضل سلوكه الوسطى وبعده عن التطرف والمغالاة والاستلاب ، وفى الآخرة بضمان استقرار وجدانه وحمايته من القلق حين ربط مصيره بما هو أسمى من متاع الدنيا الزائل . نعم يأتى الإسلام بدعاته ، وهم أكثر إصراراً على المواجهة فى سبيل الحق يحاورون الخصوم بالحكمة والإقناع لايرهبونهم ، يجادلون الأعداء بكلمة الحق ، ويكشفون الأدعياء بتعرية زيفهم ، وارتزاقهم لاعن طريق معارك كلامية وطنطنة بالألفاظ ، ولكن بكسب الأرض من تحت أقدامهم فى كل يوم . ليتقدم الإسلام فى كل القارات كمنقذ للإنسان من الضلال ، والاستلاب ، والطغيان بكلمته الطيبة المتجه إلى الضمير والوجدان ، واضعاً فى حسابه إعاقة الأدعياء ومجادلة الخصوم ، ومنازلة الأعداء ، معتمداً على منهج واعى وعلى تعبئة أصيلة للملايين الباحثة عن الحق ، والعدالة ، والتقدمية ، وسمو الإنسان

---

(١) حضارة الأشياء تعبير أطلقناه فى مؤلفات لنا ، باللغات الأجنبية لنقيم من خلاله حضارة الاستهلاك والرفاهية المادية • المستهلك (بفتح الهاء) هو الانسان ، والمتحضر هى الأشياء • تتحضر الطائرة ، والثلاجة ، والعربة واللباس والاساس على حساب الانسان المستهلك (بفتح الهاء) قيما وجسدا •

ليس فى قلب المسلم الواعى حقداً ، ولا كراهية ، ولا ضغينة ، ولا طمعاً فى دنيا ، ولا رغبة فى ملذة وقتية واهية ، وإنما قلبه عامر بحب الله ، ومن ثم بحب أخيه متفهم لنفسه ، ولغيره . صافى هادىء فى مواجهته ، صريح فى خصومته ، صلب رزين فى منازلته ، يجاهل أدباً ، وحياء ، وتواضعاً ، ولا ينافق ، يحاور صدقاً ولا يراوغ ، ويستوعب المواقف قبل أن يتحرك ، لا مكان لديه للعفوية ، والعشوائية ، والاعتباطية ، وإنما الحكمة والعمق والتروى شعاره فى كل المواقف ليكشف أقنعة الأدعياء ، لايهاب خصومه ، ولايخاف من أعدائه لأن الحياة بالنسبة له ليس مجرد أكل ، وشرب ، ومتاع يحرص مستعبداً على إبقائها عبر أيام تكرر وليالى تمر ، وإنما الحياة بلاء تكشف من خلاله حقيقة طاقته الصالحة ، وجوهره الأصيل ، وسلوكه البين . قاعدته وحكمه فى السلوك إرضاء الله ، وتقبل الدنيا ، وقضاياها تقبل المؤمن المتفائل بلقاء الله ، مسيرته الدنيوية يعيشها بفؤاد رضى ، لاتغريه فينسى حقيقته المؤقتة فيها . ينظر دائماً إلى السماء كيف رفعت ، وإلى الجبال كيف وضعت ، وإلى الكواكب المنتشرة فى الكون كيف نظمت وأحكمت ، تسبح باسم الله ، وإلى المحيطات الواسعة كيف حفظت ؛ وسيرت ، فيتواضع فى مشيته ، وفى جلسته ، وفى حديثه ، وعلاقته بكل ما يحيط به ، ويعيد النظر فى هذا الكون ليكتسب مزيداً من التواضع ، ويسلم بأن معرفته مهما عظمت فهى نسبية ، وبقاءه فى الدنيا مهما طال فهو مؤقت ، فيتمسك بما هو باقى ، ولايربط قلبه ووجدانه بما هو فانى ، لكى لاينمو ندمه ، وقلقه بتآكل العمر واستهلاكه ، وليكن نعم الداعية المتفاهم مع نفسه أولا ، فيحدد لها أبعاد الدنيا ومعالم الطريق ، ليتطلق إلى الآخرين وهو المتجانس المتعادل ، فيكون مجرد النظر إليه مقنع بصدق رسالته التى يدعو إليها ، متفتحاً سمحاً محاوراً لين الجانب ... ورب داعية متعادل صادق من هذا النموذج الأمثل أجدى للإسلام من آلاف الأبواق التى تصيح تحت اسمه وباسمه وأصواتها فى الواقع ،غير قادرة على إسماع فؤادها نفسه الذى منه تنطلق . الإسلام

مبدؤنا ونشر الإسلامية بنهج العصر غايتنا ، نحاور ونواجه ونقنع الخصوم ، وننازل الأعداء ، ونرفع أقنعة الأدعياء ، ونشد أزر الدعاة ، الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه متمثلين بقوله تعالى « **قل لا يستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث ، فاتقوا الله يا أولى الألباب لعلكم تفلحون**»(١).

***

---

(١) المائدة : ١٠٠ .

الفصل الثالث

في
الماركسيّة والدّين

من ماركسية الرفض الى ماركسية الارتداد
عبر الحوار والاجتهاد

- طرح الاشكالية .
- الالحاد والتباس المفاهيم .
- الارتداد الماركسى عبـــر الحـــوار والاجتهاد .
- خلاصـــة .

الى أمتنا العربية الاسلامية

من خلال « منظمة جامعة الدول العربية العريقة . للتربية ، والثقافة ، والعلوم » . « والمجامع العلمية الإسلامية الأصيلة » عرفاناً واعتزازاً منا بمساندتهم ، ومباركتهم لإدراج اسمنا فى « قوائم المرشحين رسمياً لجائزة نوبل فى الآداب » للاعوام القادمة ، بعـــد أن تم فى أكتوبر الماضى .

بسم الله الرحمن الرحيم

فى الماركسية والدين

تمهـــيد :

اشكالية أساسيةوحيوية أم اشكالية ثانوية وتجريدية ؟ اشكالية المواجهات بين الدين والفكر النشط المعاصر مجسداً فى الماركسية وما حولها أهى اشكالية أساسية وحيوية أم اشكالية ثانوية وتجريدية ؟ هل من باب رفاهية الفكر أن يتعرض الباحث لهذا الموضوع ؟ لأن هناك موضوعات أكثر فورية تتطلب تعبئة الفكر وتحريك القلم . أم هذه القضية لها الصدارة ولابد من طرحها وإعطائها ما تستحق من الوقت والطاقة عند المفكر الإنسان الملتزم بقضايا عصره .

نستبعد دون إطالة ومن البداية الافتراض الأول لأنهإلا وجود له إلاعند فئة معينة تعانى من الوصاية الفكرية ذات اليمين أو ذات اليسار ، ومن احتباس القلم ، وتقوقع الرؤية ، وتكهف الالتزام . فتعيش فى قوالب فكرية محنطة صنعت لها مسبقاً وحكم عليها بعدم تجاوزها إلا بحسبان ، بل وفرضت عليها فى غيبة الوعى ، وقصور التكوين ، واستحالة التطلع والإشراق ، لتصبح مجرد آلات تجتر تعبيرات موجهة فرغتمن محتواها .

ومن ثم لم يبق لنا إلا الافتراض الثانى الذى اكتسب مشروعية وجوده وأولويته من خلال الواقع الملموس فى الحياة الفكرية ، ليس فقط فى المجتمعات الفتية التى تبحث عن ذاتها وعن أرضية تجسد فيها علة وجودها من حيث هى (لا وجودها من خلال تهميشها لذات الآخرين تمضغ فتات الفكر المستورد لتقتات به) وإنما فى المجتمعات الصناعية المتقدمة والتى تتمتع بحرية الفكر وتؤمن بعطاء الإنسان لا استغلال الإنسان باسم المجتمع أو استغلال المجتمع باسم الإنسان .

***

المبحث الأول

طرح الاشكالية

لنبدأ فنسمى الأمور بمسمياتها بالنسبة للدين وباسم أسسه ومبادئه الخالدة ، وإيماناً بالمسئولية المقدسة فى العقيدة والالتزام نرفض الوصاية والجمود والاحتماء خلف الشكليات ونتبنى دائماً الحوار والاجتهاد لما فيه من تسليم بتحرر العقل والاعتراف به ، وما فيه من إعلاء حق لكلمة الله. وبالنسبة للفكر النشط المعاصر مجسداً فى الماركسية وما حولها وباسم التطور فى العلم والمعرفة نرفض أيضاً القوالب الجاهزة المصنوعة خصيصاً لتكون سجناً للفكر ومقبرة للاجتهاد ، وتجهيلا لحركة التاريخ باسم فلسفة التاريخ وحتميته .

وهنا نستبعد أساساً الماركسية الجاهزة المهندسة (بفتح الدال) حسب المقاس لتبرير المواقف والأغراض ونعنى بها ماركسية النظم المطبقة ذات المصالح الإنتاجية والاستهلاكية التى ربطت مصيرها بمصير المضاربات الدولية وسوق عملة المزايدات مرة باسم التعايش السلمى وأخرى باسم فلسفة الوفاق على جثث ضحايا الحروب المحلية وامتصاص موارد الشعوب وخيراتها فى مقابل بيع أسلحة التخريب والدمار وتجريبها لمعرفة مدى فاعليتها فى أجساد البؤساء ، بعد تذكية الحماسات بين أفراد المجتمع أو الأمة الواحدة ، والمساعدة الضمنية فى نصب شباك الهزائم والنكسات لمزيد من النكسات ، مستغلة المكر والدهاء والحيل والرياء ، والصيد فى مستنقعات المياه العكرة ...

هذه الماركسية بالنسبة لمتخصص نزيه فى الماركسولوجيا هى مجرد واجهات وشعارات لاتقل استهلاكية عن ما تغطيه من استهلاك ، فهى

ماركسية لم تكتف بخيانة ماركس المفكر وإنما تجاوزته لخيانة الإنسان ، وعليه فالماركسية التي تعنينا هنا كما نتصورها على مستوى الاختصاص في الماركسولوجيا لا على مستوى الفضول أو المزيدات باسم المواقف والأغراض هي أولا ماركسية المنطلق والانطلاق ونقصد بها ماركسية ماركس ثم ماركسية التأصيل والانعتاق وهي التي تتجسد — حسب تحديدنا للمفهوم في الخلص والأصفياء من الماركسيين ومن الشراح المختصين الأحرار ، باعتبار أن الماركسية مرت بمراحل متعددة ، وعرفت الفرق والملل المتنوعة ، وأسست تنظيراً ثم مورست تطبيقاً .

إذ بعد ماركسية المنطلق والانطلاق مع ماركس من الأصول إلى النضوج كانت ماركسية ما بعد ماركس من الأزمة والارتقاب إلى الاستيعاب والانبعاث مع روزا لكسمبورج والماركسية اللينينية تنظيراً وتطبيقاً ، وما حولها وما تبعها من اجتهادات وانشقاقات وارتدادات بل وتصفيات كمجرد أمثلة لا حصراً . بوخارين ، كاوتسكي ، تروتسكي ، ستالين ، تيتو ، ماو ، والقائمة طويلة ، وحافلة بالمنظرين بمختلف التيارات التي يمكن مع التجاوز تصنيفها من باب التقريب في اتجاهين رئيسيين تتكامل فيها هذه التيارات بطريقة أو بأخرى .

اتجاه تمثله ماركسية تنظيرية متحررة تسعى جاهدة بفضل التعميق الفكري إلى التأصيل والانعتاق من خلال الحوار والاجتهاد . واتجاه تتقمصه ماركسية جاهزة وإن اختلف الموطن ، مهندسة حسب المقاس لتبرير المواقف وهي ماركسية النظم المطبقة ذات المصالح والمنافع والأغراض .

إن كان الاتجاه الأول تجمع تياراته وحدة الهدف الفكري الإنساني ، فالثاني تباينه تياراته حسب المنافع والمطامع والأهواء . لأنه لا يمكن عزل ماركسية التطبيق عن معطيات المجتمعات التي طبقت فيها وضرورياتها وحاجياتها ومتطلباتها ومن ثم فهي مجرد غطاء يتكيف حسب هذه المعطيات وبالتالي لاتعنينا أساساً هنا كما لاتعنينا شروحها التبريرية الموجهة ، والتي يمكن وصفها بأنها ماركسية اللاماركسية .

لأن المفكرين الماركسيين فى النظم الماركسية من الخطأ عزلهم عن محتوى تبرير النظام ،فهم سجانته وسجناؤه فى نفس الوقت، يفكرون باسم ضرورة بقاء النظام ، ولوعلى حساب غيبة الماركسيةوالالتزام ، وصندوق التعبيرات كفيل بامتصاص التناقضات وتغطية العورات ، ويلحق بالماركسية الجاهزة هوامشها وضواحيها خارج حدودها الجغرافية ،هذه الهوامش للماركسية الجاهزة المقنعة لمصالح نظمها ، والتى اتخذت من الماركسية مجرد غطاء ورداء ، تمثلها فئة من المروجين والمهرجين والوصوليين بائعى الشعارات والمغالطات يبثونها دون وعى ، ولا عمق ولا إيمان .

بقى لنا إذن كقدرة احتكام فى تقييم موقف الماركسية من الدين ، ماركسية المنطلق والانطلاق (ماركسية ماركس الأصول والنضوج) ثم ماركسية التأصيل والانعتاق بعد ماركس ،والمجسدة حسب تحديدنا للمفهوم فى الخلص الأصفياء من الماركسيين ، ومن الشراح المحايدين الغير متمركسين كمتخصصين أحرار .

هذا التقييم الذى نتصدى له — نشير إلى ذلك منذ البداية — ليس جزافياً أو عفوياً وإنما نتيجة لمعايشة فكريةللدين كانتماء واقتناع ، وللأصول الماركسية كتخصص واختصاص ... إن كان التخصص فى الماركسية كلفنا من العمر زهرته أعواماً طوالا قاربت الآن الربع قرن ، فالدين قد احتضننا فى طفولتنا وفتوتنا لنكون من رجاله ، فعرفنا مجاورة الأزهر الشريف وممراته ، وحصره وأروقته وفقهائه ؟ وحفظنا القرآن الكريم وأحاديث الرسول الأمين كأى طفل فى قرية مجهولة من قرى أمتنا العربية الإسلامية ، وعاصرنا أوراق الكتب الصفراء ومراجعتها تحت ظلال أضواء المنافذ الضيقة التى لاتسمح لدخول شعاع الشمس إلا بمقدار ، وجسدنا ملتصق بالأرض رمزاً للصبر والإصرار .

فلسنا بغرباء على الدين ولا بمتطفلين على الماركسية التى عرفناها من جذورها الفكرية : ألمانية فلسفية ، أو إنجليزية اقتصادية أو فرنسية

اجتماعية ، من اليسار الهيجلي إلى ريكاردو ، ومن سان سيمون إلى فوريه وأوين ، ومن خلال الجمعيات السرية للعدلاء والمشردين في باريس، حيث استقى ماركس منهم نضاليته ، ومع مواجهات باكونين وجران واشتين ، وبردون وغيرهم ، وفي رفقة الشاعر هنريك هينه المرشد الأمين لتطلعات ماركس الشاب ، وفي أروقة جامعات برلين وإينا حيث لاحظنا بناء ماركس المثقف بعد الاشعاعات الأولى في مدينة ترف وجمعية الدكاترة .

ثم مع الشراح الأوفياء بعد ماركس الباحثين عن التأصيل والانعتاق في فكره ؟ أما الدين فقد تقبلناه من منابعه بفطرة الإيمان قبل أن نواجهه بصرامة العقل الوضعي وعطاء الفلسفة الحديثة والمعاصرة النشطة .

ولو أن الارتداد تم على مستوانا وتمكن ماركس وما حوله من إطار فلسفي نشط من أن يقنعنا بالتخلي عن الدين ، لما تراجعنا عن إعلان ذلك ، ولكن اكتشفنا الارتداد عند ماركس وعلى لسانه ، فبعد الرفض عاد بالدين إلى الحوار ، وعليه فالأمانة العلمية تدفعنا بكل موضوعية إلى إعلان ارتداد ماركس ، وفاءاً منا لحقيقة تطوره الفكري ، ولأصالته ، وعدم مكابرته كما يفعل البعض المضاربين والمقامرين فكرياً باسمه بعد ذلك .

ولنبدأ تقييمنا فنحدد أبعاده ، لأن المقام لايتسع لمواكب السيرة وتعاقب الأحداث . لقد طرحنا في الستينيات وبشيء من الحذر والحيطة والاحتراس في أبحاث منشورة لنا في مجلات علمية اجتماعية بسويسرا ، وفي مراكز البحث العلمي بعض التساؤلات حول الدين والارتداد ، وذلك قبل نشر مؤلفاتنا عن السوسيولوجيا ، والاشتراكية ، والدولية والمرحلة الوضعية المهيئة للماركسية ، وانعكاساتها العالمية ، ولاحظنا أن هذه الأبحاث قوبلت لدى البعض بالتحمس المشبوه ، طمعاً في استغلالها لتدمير ماركس فاتخذوها كأرضية لأطروحات عن ماركس المسيحي الفاشل وضعها أحد القسسة ؟ ولقد تحفظنا عليها في حينه .

كما قوبلت من بعض الماركسيين فى الغرب بالتفهم والاستيعاب ومحاولة معرفة المزيد حول هذا الموضوع ، وإن كان جانب من غلاة الماركسية والمتطرفين لجأ إلى المغالطات فى تقييمها دون عمق ودراية . لأن خير من يستفتى فى معرفة ماركس هو ماركس نفسه وإنتاجه .

ولقد ألزمتنا طبيعة البحث بعد ذلك أن نتصدى لقضايا أخرى أقل سخونة وحساسية من قضايا الماركسية كمثال : أصول الفكر الاجتماعى فى روسيا قبل أحداث أكتوبر .مدرسة توسكان الاجتماعية التقدمية ودورها فى توحيد إيطاليا ؟ أصول الاشتراكية فى ألمانيا . الفكر الإنجليزى الاجتماعى وعلاقته بالمدرسة السان سيمونية . وكذا الفكر الاسكندنافى لسترنبرج ونيلس ونلسن.وحركة الأرجنتين الفتية وعلاقاتها بالفكر التقدمى الأوروبى. والارتداد الاشتراكي فى أمريكا الشمالية وعوامله ؟والحركة السان سيمونية فى العالم العربى . . وأبحاث أخرى منشورة فى مراكز البحث العلمى والمجلات العلمية المتخصصة ؟ .

ولكن هذا لم يمنع تساؤلنا عن « الدين وماركسية الرفض والارتداد» من أن يتخذ طريقه على مستوى الأصداء وردود الفعل . خصوصاً وقد جاء مدعماً بالبراهين والوثائق . وأبرزنا فيه كيف أن ماركس فى مرحلته الأولى (ماركسية المنطلق والأصول) تبنى أساساً مبدأ الرفض للدين لا رفضاً فلسفياً ولكن رفضاً سياسياً حيث انبرى لدوره فى بنية المجتمع ووصفه بأنه دور سلبى وقف إلى جانب المستغل (بكسر الغين) وصنفه بين الإيديولوجيات الاستلابية التى تمارسها البنية الفوقية للمجتمع كمخدر تبريرى . . ؟

واستمر فى موقف الرفض هذا تحت تأثير فيورباخ واليسار الهيجلى من بوير ، وكوبان إلى موزيس هيس ، وجانز وروج وغـــيرهم ، وحتى انعكاسات فكر كندرسيه ؟ . غير أننا لاحظنا تحول تدريجى منذ سنة ١٨٤٤ عند ماركس الناضج وموقفه من الدين ، وحاولنا أن نبحث عن سر هذا التحول ولم نستبعد التأثير الفرنسي من خلال مدارسه الاجتماعية ومدرسة

سان سيمون بصفة خاصة ، حيث تصدى ماركس باسمها ليفند آراء كثير من المفكرين الألمان لأنهم لم يفهموا سان سيمون أمثال جران واشتاين .

فقد وضع ماركس مؤلفاً يرد فيه عليهما ثم كانت طلائع أو ارهاصات الارتداد عند ماركس عن موقفه حيال الدين والإله . « الالحاد – يقول ماركس – لا معنى له لأنه إنكار للإله بلا مبررات ، اللهم إلا إذا كان الهدف أن يحل الإنسان محله » . . ويكرر ماركس نصاً « الاشتراكية ليست فى حاجة إلى مثل هـــذه الشطحات التجريدية الجوفاء والمضاربة على الإله » . .

ولقد استعمل « روجيه جارودى » هذه النصوص فى محاجاته وتعليقاته الأخيرة مع « موريس كلافيل » ، كما استعمل بقية البراهين الأخرى التى تؤكد بالنسبة لنا الارتداد ، وبالنسبة له أى جاردوى « المرونة الفكرية عند ماركس » وإن كنا فى الجوهر متفقين على تغير الموقف عند ماركس : ارتداد أم مرونة ؟ نفضل بالنسبة لنا وباسم الأمانة العلمية أن نسمى الأمور بمسمياتها خصوصاً فيما يعنى هذا الموقف الذى له أهمية خاصة .

أما بقية براهين الارتداد فمنها رسالة ماركس المشهورة الموجهة للبابا بمناسبة رفضه الدخول فى « الحلف المقدس » وانطوائه تحت لوائه ، حلف هؤلاء الذين شوهوا جوهر الدين حين اتخذوا منه « شرطة روحية » فى خدمتهم والدين منهم براء ، هنأ ماركس البابا على موقفه الذى ينطلق عن إيمان ووجدان دينى أصيل عميق . . ؟ كما أن ماركس هاجم فيورباخ نفسه، وهنا نصل إلى وضوح الارتداد لديه ،حين وصفه لفيورباخ « بأنه جعل من الوجدان والروح الدينية شيئاً راكداً جامداً لا قدرة فيه أو له على التغيير . . ؟ »

ولعل أقوى براهين الارتداد عند ماركس ، تقييمه مع إنجلز لموقف رجل الدين « مانزر » فى حرب الفلاحين وثنائه على دوره الخلاق الواعى كرجل دين ثورى مصلح .

وبعد ثلاثين عاماً سنة ١٨٧٤ من تاريخ موقف الرفض يأتي ماركس الناضج ليعلن ما هو متجاوز للارتداد ونعنى بذلك ذهابه إلى حد السخرية الصريحة من الملحدين ممثلين فى جماعة من المهاجرين البلانكيين (نسبة إلى لويس أوجست بلانكى (١٨٠٥-١٨٨١) السجين الدائم وأحد المسئولين عن أحداث سنة ١٨٤٨ فى فرنسا ، لا أودلف بلانكى شقيقه (١٧٩٨ — ١٨٥٤) كما التبس على البعض .

لقد سخر ماركس من الملحدين البلانكيين الذين حاولوا — حسب تعبير ماركس نصاً — أن يصيروا البشر ملحدين عن طريق توزيع الفتاوى ، يالها من مهزلة ؟ . ولا شك أن قمة البراهين المؤيدة للارتداد الصريح عند ماركس هذا البرهان الأخير الذى يتجسد فى النص الصريح الذى نورده وقد استشهـد به جارودى أيضاً فى تبرئة ساحة ماركس من التطرف والاتجاه به إلى الحوار .

هذا النص حرفياً يقول فيه ماركس « إن الإلحاد قد عاش وقته ، إنه تعبير سلبى لا يعنى شيئاً بالنسبة للاشتراكيين الأصلاء . . إن المعنى لديهم ليس هو إنكار الإله وإنما تحرير الإنسان » ولقد شكلت هذه التساؤلات حول الارتداد الماركسى عند ماركس إطاراً هاماً للتأمل وإعادة النظر حالياً على مستوى إمكانية الحوار مع الدين ، انطلاقاً من مبدأ الاجتهاد والوعى بماركس من خلال ماركس، لا من خلال المغالطات والشكليات والمضاربات الأهوائية التى تتم باسمه لدى من يتقمصون رداء الحقد والمكابرة على الدين ورجاله .

ولكن قبل أن نسترسل فى عرضنا لأبعاد هذا الحوار والاجتهاد بعد الرفض والارتداد ، ربما يجدر بنا أن نشير فى المبحث التالى ولو باختصار إلى منطوق هذا الإلحاد الذى ارتد ماركس عن تبنيه ، وأرضيته الفكرية ، بهدف رفع الالتباس والاستنارة والتوضيح .

***

المبحث الثانى

الإلحاد والتباس المفاهيم

ما هو الإلحاد ؟ وهل هناك تحديد له مانع جامع : بمعنى جامع لمحتواه ، ومانع لما سواه؟. دون خوض فى القضايا الفلسفية والإلهيات ، وعلاقة الدين بالفلسفة والغوص فى التاريخ الفلسفى والدينى .. واجتهادات المتكلمين وأهل التوحيد وتحفظات من سموا بالزنادقة والمتنصلين ، والاستشهاد بالإغريق كالرواقيين وما حول الرواقيين وجذور الفلسفة الشرقية القديمة . . وتعويم الالتباس فى التفصيلات باسم رفع الالتباس ، يمكننا أن نشير باختصار إلى بعض التحديدات التى تشكل أرضية موضوعية لاستئناس المفاهيم .

بالنسبة للإلحاد من الخطأ فى القول أن ينظر إلى المفهوم بمعيار الصرامة والالتزام، فقد يعنى الإلحاد مجرد رفض الله أو نفيه ، كما يعنى الإنكار أو الجحود أو العناد والمكابرة أو التعويم أو التعميم من خلال الإنسان . وهذا لا يتم بشكل موضوعى ، وإنما يخضع لأحكام قيمية أو حتى ذاتية:

فما أكثر من وصفوا بالإلحاد لمجرد أنهم لا يشاركوا الآخرين فى رؤيتهم للإله . كما أن الإلحاد قد يصبح مجرد واجهة تبريرية لكيل الاتهام والتخلص من الخصوم ، كما حدث فى الأنسقه الكنسية وممارستها لاحتكار معرفة الإله . وأيضاً قد يعوم مفهوم الإلحاد فى مفهوم وحدة الوجود « البنتيزم » وكذا فى مفهوم « الديزم » أى الإلة بلا وحى .

فمن المعروف أنه فى فترة من فترات المواجهات الفكرية ، وصفت معطيات « وحدة الوجود » بالإلحاد ، وصنف اسبينوزا من لدن البعض

بين الملحدين وحتى الاتجاهات « الديستية القائلة بالإله دون وحى » لم تنج من التشكيك والإلحاد . هذه الاتجاهات التى تؤكد وجود الإلة ولكن دون وحى ومعجزات كمثال (نظرية كلارك) المتبنية لفكرة إله خالق دون تحكم ، ودون اختصاصات وعناية وخلود .

دون وحى ودون معجزات ، ومن اعتنقوا هذه الاتجاهات أو انطووا تحت لوائها كفولتير ، وروسو ، ومنتسكيه ، بعد أن تحفظوا على الوحى مع التسليم بوجود إله الطبيعة ؛ ولقد تطورت الاتجاهات الديستية هذه فى إنجلترا أيضاً خلال القرن الثامن عشر بل وعمت القارة الأوروبية ، نذكر كممثلين لها « إدوار هوبير » ، « ولورد شيربيرى » ، ويعد « تاندل » من أكبر حوارى هذه الاتجاهات ، وهو يرى أن الدين الحق يتمثل فى ممارسة الخلقيات كطاعة للإلة وشعائر له .

وفى ألمانيا وجدت أيضاً هذه الاتجاهات صدى كبيراً مع أتباع « المدرسة الولفينية » وهكذا تداخلت مواقف إنكار الإلة مع جحوده ، مع نفيه مع رفضه ، مع القول بلسبيته ولا مسئوليته ، وتجريده عن صفاته ، وتحميله وزر الإنسان ، أو البحث عنه فى الخلقيـــات أو تجسيده فى الإنسانيات .

هذا التنوع وهذا التداخل إن دل على شىء فإنما يدل على حيرة الإنسان المنطلقة من نسبية معرفته وإسقاط قلقله وتحسره واجتراره لمشاعر الحرمان « هيدجر » أحد رواد الفلسفة المعاصرة ونظريته « الانجست » المعبرة خير تعبير عن هذا القلق ومشاعر التحسر أمام الموت حين قوله « إننى أفكر فى الموت فى كل مرة ألاحظ فيها تآكل زمنى ، لأن مايجب أن ينتهى فى يوم ما هو منتهى أساساً » ومن ثم كان اللجوء لدى البعض إلى المزيد من التطلع والتعميق ولدى البعض الآخر من المفكرين ، إلى المزيد من العناد والمجازفة الفكرية ، وتحنيط العقل فى قوالب جاهزة باسم تحرر العقل وإشراقه .

إن الإلحاد — حسب تصورنا له — ملتبس فى جوهره ، يستغل فى تبرير مواقف الاتهام أو يتخذ كرداء لتغطية إفلاس المعرفة النسبية حينما تتجه إلى المكابرة والعناد ... فالإلحاد إن كان يلتزم بالإنكار فى البداية ، فالإنكار بدوره يتم على مستوى حقيقة الذات قبل إنكار حقيقة الإله . ففى اعتقادنا أن من ينكر الإله إنما أنكر معرفته بأبعاد ذاته القاصرة ، وأثبت جهله بنسبية أحكامها . فما نحن كفكر وعقل وتعقل إلا إنتاجاً مكتسباً لمعرفة مشروطة زمانياً ومكانياً وجسدياً .

مشروطة زمانياً بمعرفة العصور التى سبقتهامضافاً إليها معرفة عصرها ، ومكانياً مشروطة بجزئية من مجموعة شمسية محددة بين ملايين المجموعات الشمسية التى تسبح فى الكون ومجموعاته تسبح باسم ربها المهندس الأعظم الذى حرك النملة كما حرك الملايين من هذه الأنظمة الشمسية فى الكون بكمال الدقةوالانتظام« **وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى** »(١) ، « **والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره** »(٢)وقوله« **لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولاالليل سابق النهار ، وكل فى فلك يسبحون** » (٣). صدقت يا إلهى العظيم ، فما أنكرك إلا مكابر جهول .

وجسدياً مشروطة بعطاء عضوى محـــدد الأهلية والامتصاص والإدراك ، وبالتالى لا يمكن لمعرفة خاضعة لهذه المستويات الثلاثة أن تزعم التجاوز لإطارها إلا إذا كان ذلك من باب المقامرات والمجازفات العفوية .

فرحلة المعرفة والعلم طويلة نحو الكمال ، وما هو مجهول يتجاوز بكثير ما هو معروف ، وصدق الله العـــلى العظيم حين قال بنسبية العلم قبل أن يقول بها « سبنسر » وغيره ، قال جل جلاله بالنسبة لأدق الموضوعات ، ونعنى بذلك الروح التى ترمز لقوانين الكون المسجدة لأوامر

---

(١) الرعد : ٢ . (٢) الأعراف : ٥٤ .
(٣) يس : ٤٠ .

الله : «ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا »(١) كيف تقبل الإلحاد إذن ! إلا إذا كان تعبيراً عن حيرة وحسرة اليائس ، أو مكابرة المعاند الجهول ، وصدق الله الحق فى قوله « والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون » (٢) وقوله « إلهكم إله واحد ، فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون »(٣) .

وأكثر منه عناداً فى الجهالة ، هذا الذى لم يكتف بإنكار الإله بل سمح لنفسه بطفولة فكرية عفوية أن يزعم أنه اكتشف « حقيقة نشأة الكون مسجدة فى المادة الخالقة لنفسها بنفسها » وإننا لنطرح على من يزعم هذا القول تساؤلا بسيطاً يتمشى مع طفولته الفكرية وهو « هل يمكن أن يدلنا على المكان الذى كان جالساً فيه وشاهد هذا المنظر العجيب للمادة فى بداية الكون وهى تخلق نفسها بنفسها ؟ إنه دون شك استباح لنفسه ما حرمه على الآخرين .

حرم على الآخرين من المؤمنين أن يقولوا بالوجود الغيبى للإله بينما أحل لنفسه أن يلجأ إلى غيبية البرهان فى النشأة الماديه للكون . فهو بهذا قد مارس الدليل الغيبى فى الوقت الذى ينكره على الآخرين .

وحتى من سلموا بوجود الإله بعد أن جردوه من صفاته وبلا وحى وبلا عناية وبلا شعائر صاغوا إله رضى من الغنيمة بالإياب ، ألا يحق لنا أن نتساءل أيضاً بخصوصهم كيف يمكن لإله أعطيناه الحق فى خلق الكون نمنعه من مزاولة تسييره له ، اللهم إلا إذا كان هذا الإله غير واعى بعظمة ما خلق ؟ وربما كان من الأولى على أصحاب هذه الاتجاهات الديستية أى « إله بلا وحى ولا عناية ورعاية » أن يكتفوا بالتحفظ على شكلية الشعائر الكنسية واستغلالها بدلا من نفيها أساساً وإنكارها ، فلا يمكن مثلا أن نحمل بحال « مسيحيه المسيح عليه السلام » ما ارتكبته وشوهته مسيحية بعض « الأنسقة الكنيسية » ولا يمكن أن نحمل الإسلام ممثلا فى

---

(١) الاسراء : ٨٥ .
(٢) النحل : ٢٠ .
(٣) النحل : ٢٢ .

القرآن وسنة رسول الله عليه السلام وسيرته ، وما وقع فيه بعض المسلمين خلال العصور من أخطاء بشرية فى التطبيق والممارسة ، فلئن كانت شعائر بعض الأديان السماوية قد شوهت ، وقدمت حتى فى شكل هزليات ، فهذا لا يمنع عطاء شعائر الأديان التى لم تشوه وصحة عليتها .

فمثلا من يقول بشكلية الصلاة فى الإسلام وهى رياضة وتعبئة للوجدان . والحج الذى يزكى الوعى الجماعى والصيام كترويض للنفس وتعالى بها عن الضياع فى استيلاب الإشباع الغرائزى الزائل ، والزكاة وعطاؤها الإنسانى لتحقيق العدالة الاجتماعية ، شعار مجتمع الإنسان وتحرره ، والوحى الذى نزل على محمد عليه السلام ليقدم لنا من خلال القرآن مبادىء وقيم أسس للحياة يقف أمامها ابن القرن العشرين مفكراً مبهوراً رغم أن محمداً عليه السلام كان نبياً أمياً نشأ فى أم القرى مكة وفى عصر الأساطير والخرافات ومر عليه أربعة عشر قرناً من الزمان ، مع أن هناك مبادىء لم يمر عليها أكثر من نصف قرن وأصبحت متجاوزة بالأحداث وتطور المجتمعات .

أما بالنسبة للغرب وما قام به بعض مفكريه من تسفيه للإله ، فلا يمكن بحال أن يعزل ذلك عن جو التغميض الدينى ، وما ارتكبته بعض الأنسقة الكنسية من أخطـــاء ، وما مارسته من قهر أو تبنته من شكليات ، وبالتالى لا يمكن أخذ موقف هؤلاء المفكرين المناهضين لإله الكنيسة والمعبد كقاعدة فى تقييم كل الأديان وعبر كل العصور ، وفى كل المجتمعات .

إن ما أبداه بعض مفكرى الغرب فى الفلسفة الحديثة من تحفظات وما تم من مواجهات كان بالضرورة انعكاس للأوضاع الدينية والاجتماعية والاقتصادية هناك ، فمثلا ما المفكر « كندرسيه » وقد تأثر به الكثير فى هذا المضمار ، إلا معبراً عن ما يلاحظه فى مجتمعه حين قوله « الدين

نتاج ذهني مفسد ساعد على انتشاره مكر القسسة وحيلهم » ، لقد حدث التباس فى المفاهيم والتباس فى التقيم ، وتعميم جزافى للأحكام فجسدت خطيئة الإنسان فى الإله وحمل الدين وزر المأساة وذهب المجازفون بالفكر إلى حد المناداة بالعلم كبديل للدين ، وغاب عنهم أن كليهما لازم للإنسان .

وهذا ما سلم به ودافع عنه رائد المدرسة الاجتماعية الفرنسية «سان سيمون» والذى تبنى « كارل ماركس» الكثير من أفكاره كما هو معروف ، لقد حذر « سان سيمون» مراراً وحتى وهو على سرير الموت من المجازفة فى رفض الدين باسم العلم « ليس هدف العلم وراثة الدين ، ولا هدف الدين إيقاف تقدم العلم ، وإنما تجمعهما أرضية الوفاق والحوار لأن كليهما لازم وضرورى لتحرير واسعاد الإنسان » .

ولقد لفت نظرنا أن نجد عند «ماركس» الناضج بعد تعرفه على المدرسة السان سيمونية أصداءاً لهذا المفهوم السان سيمونى فى ارتداده ، حين أكد فى آخر عمره (أى ماركس) كما ذكرنا فى بداية العرض قوله « بأن الإلحـــاد قد عاش وقته ، إنه تعبير سلبى لا يعنى شيئاً بالنسبة للاشتراكيين الأصلاء ، إن المعنى لديهم ليس هو إنكار الإله وإنما تحرير الإنسان » ولكن هل كان لارتداد ماركس فى موقفه من الدين صدى فى الفكر الماركسى بعده بما يدعمه ، ويفتح الطريق للحوار والاجتهاد باسم التفتح الفكرى والرجوع إلى الحق بدلا من التمادى فى الباطل ؟ هذا ما سوف نشير إليه بإيجاز فى المبحث الثالث والأخير من هذا العرض .

***

المبحث الثالث

الارتداد الماركسى عبر الحوار والاجتهاد

بعد أن وضحنا معالم الارتداد الماركسى عند ماركس كما نراه ، أو العودة إلى مرونة الرؤية وقبول مبدأ الحوار مع الدين كما يراه الماركسيون الأصلاء ، وبعض الشراح الأحرار من غير الماركسيين ، نشير إلى أن الفضل فى إعادة الحيوية لهذه الاشكالية الآن يعود إلى المفكر الماركسى الفرنسى الكبير « روجيه جارودى » الذى لعب دوراً هاماً فى إبرازها .

هذا الماركسى الناضج المتحرر ليس فقط من دكتاتورية أنظمة الماركسية الجاهزة والمطبقة حسب المتطلبات والأهواء ، وإنما من قهر الأحزاب الماركسية المتحكمة والمتسلطة على الفكر الماركسى باسم مشرعية الانضباط فى الخلايا ، والتى حولت هذا الفكر الماركسى الذى هو ملك للجميع ، وعرضة لكل الاجتهادات إلى فكر قدسى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وصاغته فى قوالب مهندسة حسب المنافع والأغراض تحتكر صناعتها والفتوى فيها فئة قيادية على رأس الأحزاب تستبيح لنفسها مشروعية التفكير لغيرها من القصر ، وكأنها عليهم فى مركز الأوصياء ، وهـذا يتعارض مع أبسط قواعد حرية الفكر والتفكير (حلال على حرام عليك) .

لقد تعرفنا فكرياً على « جارودى » فى الخمسينيات من خلال دراساته البناءة « الأصول الفرنسية للاشتراكية العلميـة » ثم دراساته الأخرى العريضة المتعددة ، والمتنوعة والتى أكدت لنا ليس فقط أصالة « جارودى » كفيلسوف وإنما كمؤرخ للفن ، وأحد العقول الماركسية المتحررة من طاغوت الاحتكار للشروح الماركسية النفعية .

ولعل مؤلفاته : الحرية الإنسانية . وهل يمكن أن تكون شيوعياً الآن . رفض الحياة . وعد الإنسان . وكتابه الأخير ، مشروع أمل . .

تجسد هذا الاتجاه المتحرر من القهر الفكرى والتزمت ، وتبرز لنا مدى الوعى عند هذا المفكر الذى لم يعد وحيداً الآن فى انشقاقه وخروجه على الوصاية الهادفة لتحنيط الماركسية ، وإنما يشاركه الكثير من دعاة الحوار والاجتهاديين الماركسيين أنفسهم : كبعض الاتجاهات القوية فى الحزب الشيوعى الإيطالى ، وفى الحزب الشيوعى الأسبانى ، وفى الأحزاب اليسارية الماركسية فى أمريكا اللاتينية . . . يرفعون راية الحوار مع الدين ، وبصفة خاصة مع دعاة الاشتراكية المسيحية، لقد ارتدوا كما ارتد ماركس معلمهم عن رفض الدين .

ولا شك أن مؤلفات « موريس كلافيل » الأخيرة : من هو المستلب؟ وهذا الذى أعتقد ! والله هو الله . . (هذا المفكر الذى يطلق عليه حالياً فى فرنسا « المفكر الظاهرة » لاندفاعه وتفجيراته) قد أبرزت بعض التناقضات فى الماركسية آكلة الإله ، مما جعل « جارودى » ينبرى «لموريس كلافيل » فى الرد على تعليقاته الأخيرة ، فيوضح له الالتباس الذى وقع فيه بين ماركسية انطلقت تحت تأثير « فيورباخ » برفض قاطع للإله ، وبين ماركس ومرونته (وإن كان حسب رأينا ارتداده) لتبنى مبدأ التفاهم .

ولقد أخذ « جارودى » على كلافيل عدم الدقة فى استشهاده بنص للشاعر الإغريقى « اسختيلوس » على أنه نص لماركس ، حين قول الشاعر « إنى أبغض ، أبغض كل الآلهة » . . وكذا تقوله على ماركس بأفكار هى فى الواقع لهيجل وليست لماركس؟ وأيضا مغالاة كلافيل حين وصفه لهدف الماركسية بأنه أساساً منصب على محاربة وتدمير الأديان .

لقد أكد « جارودى » صراحة أن الاتجاهات الشارحة الأصيلة للماركسيين فى إيطاليا وإسبانيا وأمريكا اللاتينية ، تهدف إلى تجاوز النظرة العفوية للدين كمجرد « أيديولوجية استلابية » لأن هؤلاء الماركسيين الأصلاء على حد قول « جارودى » لايتبنون بتاتاً القوالب الجامدة الراكدة للماركسية والتى لاتتمشى مع الواقع ولا تضع فى حسابها قدرة الوجدان الدينى فى التعبئة ، وإنما

يلتزمون بمبدأ التفهم الواعى لحركة التاريخ انطلاقاً من الاحتكام إلى ما هو ملموس عند الملايين ، ويضعون ثقتهم فى قدرة الفن والعلم ليتجاوز بها الإنسان التناقضات بدلا من تحنيطها أو تعويمها أو تجاهلها .

وإذا أضفنا إلى رأى « جارودى » الماركسى الملتزم ، رأى ماركسى آخر لا يقل عنه أهمية ، وهو عالم الاجتماع الفرنسى « هنرى ليفبر » الأستاذ بجامعة باريس ، والذى حرص منذ أكثر من عشرين عاماً ، فى مؤلفاته المتعددة (وآخرها مؤلفه « من الدولة » حيث يؤكد أن الدولة فى مجتمعات اليوم حلت محل الإله والإنسان والأسرة على حد سواء) على تجديد الفكر الماركسى ، الذى يرى أنه تجمد فى شكل معتقدات يقينية غير قابلة للنقاش.

وهذا ما يؤكده المؤلف الذى ظهر منذ أسابيع فى باريس بإشراف عالم الاجتماع الماركسى « تيكوبو لانتزا » ، وبمشاركة نخبة من المفكرين الماركسيين فى فرنسا ، تحت عنوان « أزمة الدولة » ، وفيه طرحت قضية ضرورة المواءمة للشروح الماركسية مع قدرة التغيير والتكيف ، والتجديد ، والفاعلية للدولة الليبرالية ، وتجاوز هذه الأخيرة لتنبؤات الماركسية بفشلها .

كذا اجتهادات أحد كبار المختصين المحايدين فى شرح الماركسية فى فرنسا وهو « مكسمليان روبيل » ومؤلفه الأخير عن نقد الماركسية بالماركسية ، نلاحظ موضوعياً أن ماركسية الحوار والاجتهاد تكسب الأرض على مستوى الفكر من تحت أقدام ماركسية الجمود ، والقوالب النفعية الجاهزة لها ، والشعارات المفرغة من محتواها بعد أن صدرت إلى العالم الثالث ليشتر بها جانب من النخبة .

بل نذهب إلى أبعد من ذلك وهو أن ماركسية الحوار والاجتهاد الآن تعطى البراهين على صحة ما نتبناه ، سواء عند الشراح الماركسيين القائلين بمرونة الماركسية ، أو الشراح المختصين فى الماركسية من غير الماركسيين (ونحن واحد منهم) القائلين صراحة بارتداد الماركسية لا عند الماركسيين بعد ماركس وإنما عند ماركس فى حد ذاته كما وضحنا سلفاً ؟ نؤكد ذلك

لا من خلال مجازفة أو تحريف منا لأفكاره ، ولكن من خلال احتكام بماركس! على ماركس .

وإننا لنشعر بارتياح حينما نرى ماركس باسم العلم لم يغبن فى إبراز رفضه كما لم يغبن حين تطور فكره بإبراز ارتداده فى نضوجه عن هذا الرفض، «**كذلك يضرب الله الحق والباطل**- كما قال جل جلاله- **فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ماينفع الناس فيمكث فى الأرض**»(١). غير أن الارتداد وقد لوحظت مسيرته بوضوح فى ماركسية ماركس عبر مراحلها المختلفة أصبح بعده نعتاً يلصق على كل من لا يتفق مع الآخرين فى الرأى من الماركسيين؟

كمجرد مثال شهير نعت لينين لكاوتسكى فى دراسته «كاوتسكى المرتد» وباسم الارتداد أيضاً وقعت تصفيـات دموية بين الماركسيين أنفسهم (بوخارين؛ كمثال) مع أن الارتداد انطلق من ماركس الذى بات بدوره لدى بعض المحنطين له يصفى من جوهر تطوره حينما تزيف حقيقته ويرتفع به إلى مستوى القداسة ، تحت وابل من الشعارات والواجبات ، والطقوس الحزبية ، والمقنعات الكلامية .

ليعلم الجميع أن ماركس كأى مفكر يخطىء ويصيب ، وربما قدرة تفكيره فى تطوره وارتداده ؛ لا يعادلها إلا جهل تفكير محنطيه ، فى ركوده وجموده . ماركس عاش عصره بعمق أما أصحاب الشعارات الفورية باسم الماركسية الجاهزة فمأساتهم أنهم عاجزون عن معايشة عصورهم ؛ فاحتكموا إلى التغميض بدلا من الوعى ، وباتوا يمضغون الرفض بعد أن تقيأه ماركس ، وغاب عنهم أن عبقرية الإنسان لا يمكن إشباعها بالمستهلكات ، وواقع الشعارات ، وإنما بالتصدى لعمق الاشكاليات . وأى اشكالية أجدر بالتصدى لعمقها، من اشكالية مصير الإنسان وغائيته . .

***

---

(١) الرعد : ١٧ .

خلاصـــة

قد يمكن لمادية أن تشفى غليل الإنسان على مستوى التلذذ واللذة المؤقتة. والإشباع الزائل بزوال زمانه ، ولكن هل يمكن أن تعطيه سعادة التحقيق والقناعة والرضى عن الذات ؟ قد يكون العكس هو الصحيح ، وهو أن التمتع باللذة، ومزاولة الإشباع الاستهلاكي يتطلب دائماً المزيد من اللذة والإشباع ، فيصبح الإنسان مستلباً منبثاً « **وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور** » (١) متاع الدنيا زينة لها ، وليس جوهراً وهدفاً « **المال والبنون زينة الحياة الدنيا** » (٢) ولم يقل سبحانه وتعالى « جوهر الحياة الدنيا » .

إن المعادلة الإنسانية من الخطأ أن ترى من زاوية الجهاز الهضمي وترفيه الجسد وإشباعه ، فهذا جانب وسائل الحياة للإنسان ، أما هدف حياة الإنسان أى جوهرها ، وهو الجانب الأساسى من المعادلة ، فيلمس فيما هو أسمى ، يلمس فيما يميز الإنسان عن الحيوان ، يلمس فى التساؤل والمشاعر الواعية المتفهمة والعقل المتدبر المفكر الذى حاول أن يكتشف علة وجود هدفه ورسالته فى الحياة ، لا فى ملء بطنه فقط .

ولكن قد يطرح متسائل ، والبطون الجائعة ، والأجساد العارية ، والأقدام الحافية من الملايين ؟ مشكلتهم الأساسية ليست هى معرفة علة الوجود والبحث عن الإله ، وإنما ضمان أبسط ضروريات العيش فى الحياة ، نجيب ومتى تغذت البطون الجائعة بدلا من الأكل ، بالشعارات ، ومتى اكتست الأجساد العارية بدلا من اللباس بالشطحات المذهبية والمضاربات ؟ ومتى انتعلت الأقدام بدلا من الأحذية بالألفاظ الأيديولوجية والتعبيرات.

إن مجتمعاتنا العربية الفتية ليست فى حاجة إلى المزيد من تسويق المتاهات المستوردة من أى جهة كانت من الجهات بهدف تمزيقنا فى المجازر الدولية للمراهنات ، والتى سوف تؤول بنا لا محالة فى النهاية ، بعد تحفية الأقدام ،

---

(١) آل عمران : ١٨٥ .   (٢) الكهف : ٤٦ .

وتجويع البطون ، وتعرية الأجساد إلى تعرية وفناء الذات . علينا أولا أن نثق فى ذاتنا ، وأننا أمة ذات رسالة ورسالة خالدة لإسعاد الإنسان لا على الأرض العربية فحسب ، وإنما فى كل مكان .

على الأجيال الصاعدة أن تعى بهذه الرسالة وأنها لم تخلق عبثاً وأن ما لديها من خيرات مادية ، ومن أصول للحضارات الإنسانية ومن مواقع أرضية جغرافية تحكمية جعلها مطمع استحواذ ، فلا تستمع لأى صوت خارج صوت ضميرها ، وهو ضمير مسلم الانتماء : عربى الأرض ، واللغة والثراء ، كفيل حينما يعبىء بالعمل ويوعى الهدف أن يفعل المعجزات .

إن كان إنسان عالمنا الفتى العربى . فى غالبيته يعانى من أزمة ضروريات الحياة ومع هذا لم تفقده وعيه بإنسانيته فإنسان عالم التقدم الصناعى بغربيته وشرقيته يعانى من أزمة حيوانيته التى أطلق لإشباعها العنان ؛ ولجأ إلى الغش الجماعى للأمم وليس فقط على مستوى الأفراد ، والنفاق والخداع من خلال مستودعات التعبيرات التى ابتكرها وتبناها كالتكتيك والاستراتيجية (فن الكذب والخداع الفورى ، والكذب والخداع الطويل المدى) لابتزاز خيرات الشعوب المغلوب على أمرها ، واستنزاف عقولها فى المتاهات . ؟ .

إن هذه الأزمة الحيوانية للإنسان الاستهلاكى عند من ينعتون أنفسهم بأرباب التقدم والارتقاء ساعدت على تزكيتها لديهم غيبة المشاعر الروحانية للوجدان ، وغيبة الحب وهما أسمى ما فى الإنسان ؟ ولكن قد يطرح علينا هنا أيضاً تساؤل وهو غيبة المشاعر الروحانية للوجدان نعم ، ولكن غيبة الحب ، والحب يمارس الآن فى كل مكان ؟ نجيب أن الحب لانعنى به حب الاستحواذ الاستهلاكى والاستمتاع ، وإنما الحب المحرك لأسمى ما فى المشاعر من تفانى وتضحيـــة ، وإشراق وهو حب لا يمكن عزله عن روحانية الوجدان المنتهى فى قمته بحب الإله فى العناء وفى الصفاء . وكلها أمور تتناقض مع نفعية عصر المتقدمين بحيوانية الإنسان .

الحب فى نهاية القرن العشرين انتهى فى قمته بحب الأشياء . حتى الحبيب أصبح بدوره بضاعة شيئية تقتنى لابد من تحديد مدخولها ، ومردودها الاستهلاكى ، وبالتالى لم يك غريباً أن نرى الشباب وهو الذى يجسد فترة

التطلع والإشراق العاطفى ، يخفى خيبة مشاعره تحت ضباب دخان المخدرات ، ويستبدل حواره الروحى الرفيع بإشباع الملذات .

إنهم جيل فلاسفة الأرض فى مواجهة فلسفة السماء ، فلاسفة التدمير ؛ ومحترفى الفنائيات ممن أشكل عليهم ، فاعتقدوا أنهم دفنوا الإله بينما فى الحقيقة قاموا بدفن الإنسان . لقد أتيح لنا أن نطرح الكثير من هذه الاشكاليات الملتبسة فى حلقات التحكيم الخمس بالتلفزيون العربى سنة ١٩٧٥ حينما أنيط بنا التحكيم بين الإسلام والرأسمالية والماركسية ووصلنا فى نهاية التحكيم إلى نتيجة واضحة وهى : على التيارات الفكرية العربية المعاصرة كى تكون فعلا فى خدمة الإنسان العربى لبناء أمته الإسلامية العربية أن تعيد النظر فيما لديها وعلى مستويات ثلاثة ، المستوى الأول : مدى معرفتها بأصالة تراثها وعطائه الإسلامى لا الاكتفاء بتكرار رؤوس الموضوعات واجترار الأقاصيص والحكايات عبر تسلسل تاريخى سطحى لها . وإنما من خلال استيعاب معتمد على قدرات مناهج العصر لا استلابياته .

المستوى الثانى : الابتعاد عن المجازفة بالشعارات المذهبية التى تعنى كل شىء ولا تعنى أى شىء محدد ، أنماط للزينة ، والتعبئة الكلامية ، قد غاب عن الكثير أن العرب لديهم فائض من الكلام . ومن الأولى بالتالى التعرف على عمق المذاهب المعاصرة لا مجرد التحلى بشعاراتها حتى لا يضاف إلى جهلنا بماضينا وأصالتنا جهلنا لحقيقة ما يدور حولنا .

أما المستوى الثالث : فهو تعرفنا على واقعنا العربى المعاصر كما هو أولا ، لا كما يجب أن يكون . فلا يكفى لمفكر عربى أصيل أن يكون عارفاً بأبعاد تراثه وجذور أصالته متعرفاً على ما هو إيجابى فى قدرات مذاهب عصره ونظرياته ومناهجه ، وإنما مستوعباً لواقعة لا من خلال نصوص ووثائق مكتبية أو من خلال رؤية إطلالية لا تفصل بين معطيات الماضى كنبراس ومتطلبات الحاضر كضرورة والتزام ، أو من خلال تغنى بشطحات تأملية مستقبلية ، أو من خلال ما يقوله الآخرون الأجانب عن أرضه وواقعه ، وإنما من خلال ما يراه ويلمسه هو فى المعايشة الفعلية لقراه وبواديه ، فلا

يكفى النخبة أن ترى نفسها من النخبة ، وتأخذ أحاسيسها على أنها أحاسيس الملايين التى قد تصل نسبتها إلى٧٥٪–٨٠٪من عناصر الأمة .

إن أحاسيس هذا الإنسان العربى المسلم البسيط المجسد لهذه الملايين ، وقد عايشناه فوق تراب قريته فى كثير من أقطار أمتنا العربية المسلمة ، ولمسناه فى حشوده الكبرى ومسيراته فى مغرب العرب ، ومشرقهم ، إنسان أصيل حقاً ، معطاء ، معتز بأرضه ودينه ، اعتزازه بقبر أبيه وجده. فالأرض بالنسبة له ليست فقط مجرد طبيعة تستغل وإنما هى محتواه وكيانه ، والدين ليس فقط عقيدته وإنما قوته وتعبئته ووجدانه ، ومحور ذاته ، من أجله يستشهد ، وفى سبيله يضحى دون تردد هو حاضر دائماً فى وعيه من خلال ذكره لاسم ربه ، ينشده فى حالة مرضه ، وترحاله ولقائه ، وسلامه ، ومولده ، وزواجه ، ومماته ، فضياع الدين أو إذابته تعنى ضياعه وإذابة ذاته .

وهكذا وفى النهاية ، إن كان لنا من حوار مع الماركسية كنهج واجتهاد ونعنى بها الماركسية التى ارتدت وقبلت هى فى حد ذاتها ، مبدأ الحوار والاجتهاد مع الدين ، فلابد من أسس واضحة صريحة لهذا الحوار ، الذى نقبله معها كما نقبله مع غيرها ومع أى نهج علمى بناء من مناهج العصر ، لأننا لا نعانى من عقد القصور والنقص ، كذلك التزاماً منا أساساً بمبدأالقرآن الذى لا يرفض الحوار فى الدعوة ،والموعظة ، والمجادلة للإقناع « **ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هى أحسن** »(١).

هذه الأسس الصريحة الواضحة بالنسبة لنا هى — لا حوار ولا اجتهاد فى غيبة الله — لا حوار ولا اجتهاد فى غيبة أصالة التراث ، ومن ثم لا حوار ولا اجتهاد فى غيبة الإسلام ، ومن أجل إذابة عروبة الذات . ألسنا « **خير أمة أخرجت للناس** »(٢) بشهادة الله العلى القدير، وصدق مسيرة التاريخ ؟ رغم اطعنات المتسلطين على مصير الإنسانية ، قديمها وحديثها ، من سماسرة الحروب ، وتجار الشعارات .

***

(١) النحل : ١٢٥ .

(٢) آل عمران : ١١٠ .

الفصل الرابع

فى
السِّحْر وَماحَوْله
مَاله وماعليْه

- حول الأبعاد المحددة لهذه الدراسة .
- لمحة مبدئية تاريخية عن السحر .
- السحر ومدلوله وماذا نعنى به ؟
- ما حول السحر من ظاهرات شبيهة به .
- مدى علاقة السحر بالدين .
- موقف الاسلام من السحر .

« فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى »

(طه : ٦٦)

بسم الله الرحمن الرحيم

السحر وما حوله ماله وما عليه

تمهيـــد :

حول الأبعاد المحددة لهذه الدراسة(*)

حينما نستمع إلى تعبير سحر تتوارد المعانى لدينا وتتداخل بين الغامض والخفى ، وبين الجذاب والمستحوذ على الألباب ، وعلى ضوء هذا التوارد وهذا التداخل يتسع الإطار ويفيض ليشمل الكلمة ؛ والبيان والشكل ، والجوهر ، والطبيعة ، والإنسان : كلمة ساحرة ، بيان ساحر »، إن من البيان لسحراً » ، مظهر ساحر ، جوهر ساحر ، إنسان ساحر ، طبيعة ساحرة . . . وعلى هذا المنوال نقيس فى منح النعوت ، وتنويع الصفات الجذابة فى مظهرها ، والخفية فى مضمرها بالنسبة للفهم الفورى والانطباع السريع ، غير أننا إذا تجاوزنا هذا الإطار الساحر للسحر لنخضعه كظاهرة للبحث العلمى ، ومن ثم للشرح والتحليل ، والتفسير والتخريج ، نجد أن السحر قد اهتم به أكثر من ميدان علمى ، سواء بالنسبة للعلوم الطبيعية والبحتة ، أو بالنسبة للعلوم الإنسانية — على عكس ما قد يتبادر إلى الذهن حين النظرة العفوية الفورية — فلقد تصدت هذه العلوم له فى محاولة للتنقية والعزل ، ورفع جوانب الالتباس التى عاصرت معرفة الإنسان وتطورها فى مراحلها القديمة ، والوسيطة ، وحتى فى مشارف العصر الحديث . وبعض مناحيه .

(*) نشرت هذه الدراسة الخاصة **بالسحر** فى المجلد الثانى من الباحث (١٩٧٢) ص ١٥٥ كمـا نشر العرض الخـاص **بانسـان القرآن وأبعـاده الاجتماعية** فى العدد ١٧ من **البحث العلمى** يناير — مايو سنة ١٩٧١ ص ٨١ ونظرا لوجود بعض الاخطاء ، خصوصا تحريف اسم المؤلف نفسه فذكر باسم « رشدى أباظة » بدلا من رشدى فكار ، قمنا باعادة نشرهما فى هذه الدراسة على حدة مع خالص تقديرنا وشـكرنا للسـيد مدير مطبعة محمد الخامس الثقافية والجامعية على مجهوداته الطيبة فى اعادة النشر .

فى حقل العلوم الطبيعية والبحتة ، كان الاهتمام بدراسة ظاهرة السحر فى محاولة للتنقية والعزل والتمييز بين السحر ، وعلوم الطبيعة والكيمياء ، وبينه وما حوله ، كالتنجيم وعلوم الفلك والطب . . . وفى حقل العلوم الإنسانية كان الاهتمام بدراسة ظاهرة السحر خصوصاً على ضوء العلاقة بينها وبين الدين كنقطة ارتكاز تصدت لها الدراسات الانثربولوجية وما حولها ، والسيكولوجيا بدورها اهتمت بهذه الظاهرة وآثارها النفسية ، كما اهتم بها التاريخ بدراسة تطورها ، وانبرت لها السوسيولوجيا بالدراسة وذلك فى محاولة شارحة وتقـريرية لأبعادها الشمـولية فى الواقع الاجتماعى ، وتحديد السببية والعوامل المهيئة ، وتفهمها كظاهرة تؤثر من خلال رواسب البيئة الأساسية وتتأثر بها ، وقد تمت نتيجة لهذا الاهتمام المتعدد الجوانب وبفضله ، دراسات علمية عريضة غزيرة واسعة تناولت شتى ضروب السحر وما حوله (١) وإن كانت المكتبة العربية الحديثة ، رغم أهمية هذه الظاهرة وماكتب عنها فى الأوساط العلمية الأجنبية . وما زالت فقيرة ، أو محدودة الإمكانيات على الأقل بالنسبة لما تملكه من دراسات أصيلة بلغتها ، فهى تعيش فى أغلب الأحيان على تداول ما كتب من أقاصيص السحر وعوائده ، وأوصافه وعجائبه (٢) .

---

(١) فنظرة سريعة على هوامش هـذا البحث فى الصفحات التاليـة ٠ تعطى لنا فكرة عن مدى سعة الانتاج الـذى ظهـر حول السحر ، وعن مدى غزارته ، وان كنا مع هذا لم نذكر الا بعض الدراسات التى رجعنا اليها فى صياغة هذا العرض المركز المحدود ، والمحدد الجوانب اذ أنه لو توخينا حصر المراجع الخاصة بالسحر لكان مجرد سرد عناوينها يحتاج الى العـديد من الصفحات ٠٠٠

(٢) نجدها فى كتب على حدة من الكتب ذات « الاوراق الصفراء » أو تغطى فصـــولا بما اورده الكتاب والرواة والرحالة والمؤرخون ، ورؤيتهم للسحر وضروبه ووصفاته كمثال نطالع أيضا حتى عند ابن خلدون فى مقدمته وعند غيره فى الفترات السابقة أو التالية له ٠ وما احوجنا حاليا لدراسات علمية حديثة حول هـذه الظاهرة التى تعشعش فى جسـد اغلب المجتمعات العربية وتنخر فيه ، وتعيقه ، فباستثناء بحوث قليلة نادرة أو مقـــالات فى

ولعل هذا من الأسباب التى دفعتنا أن نقدم هذه الدراسة المتواضعة عن السحر وما حوله ، ما له وما عليه ، لا لسد هذا القصور . وإنما لإعطاء عرض تمهيدى مركز قديدفع إلى دراسات أخرى أوسع وأكمل فى المستقبل.

دراستنا هذه تنير الطريق إذن ، لا أكثر ولا أقل ، خصوصاً وقد دعمناها ، من خلال هوامشها بمراجع ومصادر مختارة لمن أراد التفصيل والبحث بتوسع حول هذا الموضوع فى المستقبل،وسنبدأها بلمحة توضح المعالم الأولية ، بتحديد إطار الظاهرة تاريخياً دون الدخول فى تفصيلات تتجاوز طبيعة التركيز لهذه الدراسة ، ثم نتعرض بعد ذلك لظاهرة السحر على مستوى مدلولها ، وهل يمكننا أن نعين مفهوماً يعرف من خلاله السحر وماذا نعنى به ؟ وهذا يدفعنا إلى مواجهة الظاهرة بما حولها وما يسير فى فلكها من ظاهرات شبيهة كالشعوذة، والشيطنة ، والتنويم . . . الخ لنحدد الأبعاد ، ولنصل بموكب الشرح والتحليل ، والتفسير والتخريج ، إلى نقطة هامةطالما شغلت بال الباحثين فى هذا الموضوع ،خصوصاً من الانتربولوجيين ، ونعنى بها علاقة السحر بالدين ، غير أننا سنكتفى بطرحها فى شكل مركز مجمل تمشياً مع إطار هذا البحث . دون الخوض فى خصائص المجتمعات البدائية والحقل الانتربولوجى ، مكتفين بالإشارة إلى الاتجاهات الرئيسية للتعرف عليها والتعريف بها بإيجاز ، مع توضيح موقف الإسلام كدين من السحر ، فهى قضية تعنينا أساساً ، وسننهى عرضنا المركز هذا ، بخلاصة نتصدى فيها لقدرة السحر إن كانت له قدرة ، ونكيف فاعليته ، إن كانت له فاعلية على مستوى الساحر والمسحور .

***

=

صفحات تعد على الاصابع كمجرد مثال مقال الدكتور سيد بدوى عن السحر وعلاقته بالدين المنشور فى مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية جـ ٤ (راجع ايضا ، بخصوص هذه المقالة هامش (١) صفحة ١٠٢ وما تلاه من دراستنا هذه) ، لا نجد مؤلفات أو دراسات اصلية تستحق الاشارة فى هذا المضمار .

المبحث الأول

لمحة مبدئية تاريخية عن السحر

من المسلم به ، أن الغوامض والأسرار والغيبيات ، والخفايا ، كانت تسيطر بصفة عامة على معرفة الإنسان فى فتراته الأولى ، وامتصت المجتمعات القديمة من بين ما امتصت سيطرة هذه المعطيات التى كانت فى بدايتها على مستوى الطوطمية ، والوثنية ، والتجسد ، والتقمص الاحيائى ، إلخ ولقد نشأ السحر فى مظاهره الأولى عبر هذا الإطار ، إطار الخفى والغامض ، والسرى والغيبى . وبالتالى لم تلك المعرفة على مستوى السببية والتعقل الطبيعى للأمور ، وحتى السحر بدوره مر من مستوى الغموض الكامل إلى الخفى نسبياً ، بمعنى من مستوى سحر لا تعرف عناصره ، ويعطى صاحبه قدرة خارقة فى مستوى القدرة الإلهية حسب اعتقادهم آنذاك إلى مستوى السحر الخفى الذى له تطبيق ، وتعرف عناصره نسبياً ، وبالتالى يلقن ويعلم ويتوارث بين السحرة عن طريق التدريب عليه والمزاولة ، بناء على تأهيل يزكى بقدرة نفسية وطبيعية مميزة ، وعليه فمنذ أقدم عصور الإنسان ، ومن خلال أقدم حضاراته الكبرى كمثال الحضارة الفرعونية ، والسحر يجد أرضه الخصبة ، ولقد حاول بعض المؤرخين أن يعطى تواريخ محددة ما أمكن ، فمنهم من ذهب به إلى ما قبل طوفان نوح ، ومنهم من ارتفع به إلى تسعة آلاف عام قبل الميلاد ، إلا أن التحديد خصوصاً بين سحب الأساطير وضباب الرواة ، ينظر إليه بتحفظ وحيطة إن لم يدعم بالوثائق والوقائع الأثرية الملموسة .

فالفراعنة — مهما كان التحديد وتموجه — عرفوا السحر قطعاً على مستوى بين محدد ، إذ كانت له قواعد وأنسقة سحرية بمعنى يشمل على

طقوس وشعائر معينة، أعطتنا دراسة الآثار الفرعونية صورة واضحة عنها كمثال كتاب الموتى ، وأسرار الأهرام،وأسطورة « أوزيريس – إيزيس». OSIRIS — ISIS ... الخ ، ولقد لعب السحر دوراً هاماً لدى الفراعنة بما فى ذلك الناحية الطبية ، حيث الجسم يقسم إلى جزئيات كل جزئية تخضع لقدرة سحرية معينة ، وكان السحر نوعين : سحر رسمى LICITE وهو سحر الكهنة ، ووصلت قدرته وفاعليته – على حد اعتقادهم آنذاك – إلى الإحياء والإماتة ، والسحر السرى ILLICITE وهو يلجأ إلى الطلاسم والسموم ، وقد حورب فى عهد « رمسيس الثالث» وكانت توقع أقسى العقوبات على السحرة السريين الذين كانوا يزاولون نشاطهم السحرى غير المشروع (١) .

والبابليون والآشوريون والكلدانيون ، عرفوا السحر ،عرفه البابليون خصوصاً خلال القرن التاسع عشر قبل الميلاد مع حمورابى ، وعرفه الكلدانيون القدماء . والآشوريون ازدهر بصفة خاصةعندهم خلال القرن الثامن والسابع قبل الميلاد ، ويذكر بالنسبة للبابليين أن الآلهة عندهم كان لهم اسمان ، اسم ظاهر ، واسم خفى باطنى له قدرة طلسمية سحرية، ولقد تفشت فى أرض بابيلون ظاهرة « الأرواح الجائلة الباطنية» وكانت هناك طقوس خاصة لحصرها والتغلب عليها ،كما عرفوا بعض الظاهرات التى تسير فى فلك السحر كالتنجيم والشيطنة وقد كان للشياطين تصانيف منهم من يعمل بالليل فقط ، ومنهم من كانوا يسجدون له ، واشتهر نوع الطاغوت من الشياطين الصارفة عن الخير ، ويلاحظ بصفة عامة فى مجمعات البابليين والآشوريين والكلدانيين أن باطنية السحر هى التى كانت

---

(١) لمزيد من التفصيل عن السحر عند الفراعنة راجع :
BONNE (Cambell). **Studies in Magical amulets, Chiefly greeco-Egyptian.** Uni. Michi. Press, 1950, Budge. E. — A. Wallis **Egyptian Magic,** London. 1901, et LEXA (François, **La Magie dans l'Egypte antique,** Paris Genthnér, 1925, 3 vol. etc.

سائدة، وعند اليهود فى المجتمعات الهامشية الأخرى المعاصرة لهذه المجتمعات القديمة وصل السحر إلى قمته ، عرفته مملكة سليمان ، كما تفشى فى عهد موسى (وإن كنا نهمشه للمجتمع الفرعونى ونلحقه به) ومهما كانت المعطيات للوثائق الأثرية ، أو الكتب السماوية ، فمن المسلم به على أى حال أن الظاهرة وجـــدت أساساً وتفشت ، بل وسيطرت فى بعض هذه المجتمعات (١) .

والإغريق والرومان وعبر العصر الوسيط الأوروبى كان للسحر عندهم مكانة لايستهان بها ودور برزلنا على مستوى « مديس وسيرس MEDEES ET CIRCE فى « الأوديسة » ، إلا أنه كثيراً ما كان يحدث خلط والتباس بين السحر وما حوله ، خصوصاً العرافة ، بين الساحر والعراف ، ورغم التنقية الفكرية التى قامت بها الفلسفة الإغريقية لمواجهة التغميض ، ومحاولة التفهم للقوة الغيرمرئية المؤثرة فى الإنسان وتحقيق رغباته ، وتحكيم المنطق ، إلا أن الأساطير والخفايا ومسيرة التغميض عاشوا جنباً إلى جنب مع الصفـــاء الفكرى السقراطى والأفلاطونى ، والأرسطى ، والرؤية الأصيلة آنذاك .

وسيطر السحر عند الرومان فى بعض عصور روما ، خصوصاً على عهد الإمبراطور « جوليوس سيزار أوجستوس AUGUSTUS » واتجه السحار إلى روما من كل صوب . أما « نيرون NERON » فقد حارب السحر رغم أنه كثيراً ما كان يلجأ إلى السحرة خفية لمساعدته من آن لآخر . كذلك عرفت بيزنطة أشكالا متعددة من السحر ، أما « أساطير فيستا VESTA » وخفاياها

---

(١) لمزيد من الاحاطة حول هذا الموضوع ، راجع على سبيل المثال لا الحصر :

CONTENAU (G.) **La Magie chez les Assyriens et les Babyloniens,** Paris, Payot, 1947, SEYED IDRIES SHAH **Oriental Magie,** et trad Franc, par Mazi **La Magie Orientale,** Paris. Payot, 1957 et CHOCHOD (Louis), **Histoire de la Magie et de ses dogmes,** Paris, Payot, 1949 etc.

السحرية . فقد تفشت فى روما كما تفشت من قبل لدى الإغريق وكذا أساطير وخفايا « اليوزيس ELEUSIS » .

واستمر موكب السحر عبر العصور الوسيطة فى أوروبا خصوصاً الظواهر الخاصة « بأسرار الحياة وطاقتها ELIXIR DE LA VIE » وسحر الآبار وتسميمها. وجاءت النهضة العلمية فى أوروبا فحدث نسبياً وتدريجياً من هذه الظاهرات ، خصوصاً مع نضوج عملية العزل ومحاولة التمييز على مستوى علمى بين التنجيم وبين علم الفلك ، وبين الطب ، وبين علوم الطبيعة ، والكيمياء وبين السحر . . .

ولم تبق إلا بعض المظاهر العالقة بعملية تحضير الأرواح خصوصاً فى فقد السحر صدارته فى أغلب المجتمعات الأوروبية ، وضاعت عليه أهميته بفضل تقدم العلم وتحرر المعرفة من الرواسب (١) .

وفى الهند والصين والشرق الأقصى عاشت ظاهرة السحر وتعايشت مع هذه المجتمعات بدورها ، وجدير بالذكر أنه فى فترة من الفترات كانت هناك علاقة قوية بين «البوذية» و « الغيبية » OCCULTISME وارتباط ذلك بنظرية الإحلال وتناسخ الأرواح ، وبالتالى كان يصعب فى هذه الفترة

---

(١) ولمن اراد التوسع يراجع على سبيل المثال فى هذا الموضوع :
BONNE (Cambell), **Studies in Magical amulets Chiefly Graeco-Egyptien,** Leni, Michigan press, 1950, EITREM (S.), **La Magie comme motif, Littéraire chez les Grecs et les Romains,** Extraits de symbole OSLOENSES. 21 p. 39 — 83, MASSONNEAU (Elianc), **Le Crime de Magie et le droit Romain,** Paris, 1933 (Thèse), BENIGNI (Umbarto) **Una Formula Magica Bixantina,** Siena, 1897, DELLACAPANNA (Gian Piero) **Magia, astrologia inquisizione e medicina hediocvale,** Piza, 1969. BILA (Constantin), **La croyance à la Magie au XVIII Siècle en France dans les contes,** Paris, 1925, FILLIOZAT (Jean). **Magie et nédiecine,** Paris, P.U.F. 1943, MARIEL (Pierre), **L'Europe païenne du XX siècle, Magie, noire en Angletaire, Tzigannes gitans et romanicheles, l'Allemagne païnne,** Paris, la palatine, 1964, et STORMS (G.), **Angle-Saxon-Magic,** The Hague, N. Jhoff 1948.

عزل الدين عن السحر عندهم ، على مستوى التطبيق أو المعتقدات والشعائر ولدى البراهمة فى الثالوثية الإلهية الهندوسية كان من أدوار أحدهم « CIVA » وصفاته السحر يهدم به ليبنى ، ولقد تجاوزت أسماؤه الآلاف ، ويلاحظ فى الصين القديمة تبلور السحر على مستوى الصراع بين الطاقة الكوسمية ، وغيرها من الطاقات ، ولقد كان للرقص والغناء دور « هام » فى وسائل السحر. كما تفشت ظاهرة العرافين والمشعوذين ، حتى أنه فى المرحلة السابقة لمفكر الصين الكبير « كنفوشيوس » كان للمشعوذين مكان رسمى فى الدولة، ولقد لعب « الرقم CHIFFRE » دوراً أيضاً فى السحر الصينى : وعمت كذلك ظاهرة الأرواح الخبيثة وكانوا يلجئون فى إبعادها إلى وضع أشجار أو زراعة شيء معين فى المكان الموجودة فيه ، وما أكثر منحنيات السحر وضروبه فى هذه المجتمعات الشرقية (١) ، وحتى تكمل جولتنا التاريخية التمهيدية هذه ، نشير إلى مجتمعنا العربى ، فهو بدوره ، قد عرف هذه الظاهرة .

المجتمع العربى ، منذ القدم وعصور الجاهلية ، وهو يتعايش مع هذه الظاهرة وما حولها كالتنجيم والعرافة . . . وورث من المجتمعات المجاورة، كما ورثوا هم من غيرهم ، ضروباً كثيرة من ضروب السحر ووسائله وتعرض الكثير من الرحالة والمؤرخين ، والكتاب ، لهذه الظاهرة بالوصف والتصنيف والتبويب ، حتى ابن خلدون نفسه فى مقدمته .

وما زالت أقطار كثيرة من العالم العربى تعيش هذه الظاهرة ، خصوصاً فى مناطقها المتخلفة الفقيرة ، ونجد من يمارس السحر ويستمع إليه ، ويلجأ

---

(١) لمزيد من التفصيل راجع :
CHOCHOD (Louis), **Occultisme et Magie en extrême-Orient, Inde. Indochine, Chine,** Paris, Payot, 1945 et SHAH (Seyed Idries) **Oriental Magic,** et trad. Franç. par Mazé, **La Magie Orientale,** Paris, Payot, 1957.

إلى وسائله لمواجهة مشاكل الحياة اليومية (١) أما الإسلام كدين فقد كان له موقف واضح سوف نعود إلى التعريف به فى نهاية هذه الدراسة (٢) والآن ، وبعد هذه اللمحة المبدئية التاريخية عن السحر ، سنحاول أن نتصدى لهذه الظاهرة على مستوى المدلول والمنطوق .

---

(١) لمزيد من المراجعة حول السحر فى مناطق العالم العربى كمثال نذكر :

DOUTTE (Ednond), **Magie et religion dans l'Afrique du Nord,** Alger, 1909, LEFEBURE (Eugène), **Le miroir d'encre dans la magie arabe,** Alger, **Rev. Africaine,** 1905 (257), P.P. 205-227. et MAZEL (Jean), **Enigmes du Maroc,** Paris, Robert Laffort. **Les enigmes de l'univers,** 1971.

(٢) انظر الصفحات التالية من هذه الدراسة المبحث الخاص بالاسلام وموقفه من السحر .

المبحث الثانى

السحر ومدلوله وماذا نعنى به ؟

فى البداية ، هل يمكننا إعطاء مدلول للسحر منه ننطلق فى العرض والتحليل ؟ كتعريف اصطلح عليه قاموسياً فى تحديد مدلول السحر « هو فن يزعم الإتيان بخوارق لقوانين الطبيعة المتعارف عليها ، وذلك بفضل ألغاز ووصف ووسائل كثيراً ما تكون غريبة » ، وحينما نعمق النظر فى هذا التعريف نجد أنه يشمل ضمنياً رؤية السحر على مستوى « عالم الطبيعة » وهو « عالم مادى MONDE MATERIEL » و « عالم ما فوق الطبيعة » وهو « عالم الأرواح MONDE DES ESPRITS » فالسحر يتصدى لعالم ما فوق الطبيعة عالم الخوارق والألغاز والأسرار . والخفايا ، والغيبيات ، بصفة عامة . غير أن هذا التعريف الاصطلاحى يمكن القول بقصوره من خلال رؤية أكثر عمقاً ، إذ أنه لم يحدد لنا متى ينتهى عالم الطبيعة ويبدأ عالم ما فوق الطبيعة والخوارق ، فما يمكن اعتبار الإتيان به خارقاً للطبيعة وممثلا لما فوقها فى عصر قد يصبح ، بل أصبح بالفعل طبيعياً فى عصور تالية بفضل تقدم العلم والمعرفة . وعليه لم يبق لنا ، إلا أن نتجاوز هذا التعريف الاصطلاحى التقريبى إلى تحديد المدلول والمنطوق على مستوى التعميق والتخصيص من خلال من تصدوا لهذه الظاهرة واختصوا فى دراستها . دون دخول فى تفصيلات قد تعم إطار هذا البحث المحدود والمحدد فى أبعاده ، يمكننا أن نركز أهم الاجتهادات الواردة حول هذا الموضوع فى اتجاهين رئيسيين : اتجاه نظر إلى السحر نظرة تقنينية رافضة أساساً ، واتجاه نظر إليه نظرة تقريرية تعتمد على الملاحظة ، واستقراء الأبعاد ، أولا وقبل كل شىء دون أن ترتفع به إلى مراحل الإعجاز

والخوارق ، أما الاتجاه الأول ، فلا يرى فى السحر إلا مجموعة من الوسائل والوصف يستعملها من يلجأون منذ القدم إلى حيل الشيطنة وحيل أخرى كضرب الودع حينما تعجز الوسائل العادية أن تصل بهم إلى هدفهم ، والشيطنة ، توهم على حد قولهم يملى على المسحور ، بأن هناك وحدات زكية ماكرة (خدم ووكلاء ، وشياطين) يسخرها الساحر ، وهى موجودة خارج نطاقه الطبيعى وتعمل لحسابه(١) ؛ غير أن تحديد المدلول لدى هذا الاتجاه التقنى يمكن التحفظ عليه ، أيضاً ، كما تحفظ من قبل على المدلول الاصطلاحى الذى أعطى للسحر ، وذلك أنه أشكل لدى هذا الاتجاه والقائلين به ، والتبس عليهم بين السحر وما حوله والشيطنة بصفة خاصة ، فخلطوا بينهم كما سنرى بالنسبة لتحديد المداليل لما حول السحر فى المبحث التالى من هذه الدراسة .

وكذا تقسيم السحر إلى « سحر أسود MAGIE NOIRE, GOETIE » على أنه الأساسى والأصيل من ضروب السحر يأتى بأفعال غير طبيعية بفضل الوسطاء من الأرواح الجائلة الغير مرئية ، والشريرة فى أغلب الأحيان و«سحر أبيض MAGIE BLANCHE, THEORGIE » أو سحر طبيعى يأتى بأمور غريبة فى مظاهرها ولكن فى واقعها تخضع لسببية طبيعية تعتمد على مهارة الساحر ، وقدرة تدريبه وترويضه المستمر ، هو أيضاً يمكن التحفظ عليه كتقسيم سطحى يميز فقط من حيث اعتبار الهدف . فالسحر سحر واحد يستعمل فى أهداف غرضها التسلية (أبيض) أو غرضها سيىء وشرير (أسود) . أما جوهر الأفعال الغير طبيعية والطبيعية فقد بينا فى الصفحة السابقة علة التحفظ عليه ، باعتبار أنه

---

(١) ويلاحظ انه قد تحمس لهـــذا الاتجاه كثير من الذين ربطـــوا بين السحر بهذا المفهوم وبين المعطيات المستوطنة للتخلف فى المناطق الفقيرة فى المجتمعات النامية التى أرهقها الاستعمار بثقله وأعطى فرصة لتفشى الخرافات والأباطيل فيهـا . راجع على سبيل المثال (اذ ما أكثر الدراســات حول هذا الموضوع) دراسة :

JUNOD (Herri. -A.) **La Jeteuse de sorts, drame de la vie des indigènes sud-Africains,** Lausanne, 1923.

مايمكن وصفه بأنه فعل/ غير طبيعي فى عصر قد يصبح طبيعياً فى عصور تالية له .

أما الاتجاه الثانى ، فيميل إلى تحديد ظاهرة السحر على مستوى تقريبى مع تحفظه عليها كقدرة إعجازية خارقة ، وإنما هى نوع من الترويض التدريبى والتعليمى يعتمد على ممارسة تصل بالسحر إلى درجة من القدرة (قدرة طبيعية دائماً) ونفسية مميزة ، يتكشف بفضلها على رؤية اعتيادية فى جوهرها ، ولكن لم يتعود عليها المسحور فى مظهرها ، بعد تعرية إرادته فتبدو له خارقة ، وإعجازية ، هى رؤية لم يستأنسها المسحور لا لغموضها وخفيتها وسريتها ، وغيبيتها ، أساساً ، وإنما لأنه عاجز عن المواجهة بعد تعرية إرادته عن طريق مهارة الساحر وتدربه . والساحر يتدرج فى اكتسابه الترويضى ، من مرحلة الاستيعاب إلى مرحلة السيطرة ، إلى مرحلة الاستعمال والاستئناس لهذه القدرة التى هى فى جوهرها طبيعية ومكتسبة(١) ، وحتى تتضح الرؤية لنا على ضوء هذين الاتجاهين سنحاول أن نعطى ما أمكن حدوداً مانعة جامعة بالنسبة للسحر وما يسير حوله وفى فلكه من ظواهر مثيلة أو شبيهة . كالشعوذة ، والشيطنة ، واللامنظور ، (بمعنى الخفى من معطيات بعض الظاهرات) والعرافة والتنويم ... الخ .

***

(١) كذلك يرى « جوزيف غراسيه GRASSET» الذى كان اختصاصيا فى الامراض العصبية والنفسية بمدينة ليون ان السحر نوع من فضول ما قبل العلم فى القدرة البشرية وايضا ، ولمزيد من التفاصيل راجع :
BOURGEAT (J. — G.), **Magie**, Paris, 1895, J.B., **Manuel de Magie Pratique**, Paris, Niclaus, 1941, et CHOCHOD (Luis), **Histoire de la Magie et de ses dogmes**, Paris, Payot, 1949.

المبحث الثالث

ما حول السحر من ظاهرات شبيهة به

ونبدأ « بالشعوذة SORCELLERIE »(١) ،وهى فى مظهرها وجوهرها لا تشكل إلا نوعاً من المزاولة المنحطة لدعاة السحر وأدعيائه لدى الشعوب المتخلفة، وعادة هؤلاء ليس لهم معرفة أو تدريب ماهر وترويض ، وإنما يتمتعون بانحلال خلقي وجنسي رخيص ويمتطون السحر كوسيلة مقنعة ، لمزاولة انحرافهم واحتيالهم، فبينما السحر يرتبط بالترويض والتدريب ، والمهارة إلى حد ما ويعيش حول إطار المعرفة نجد الشعوذة وما حولها ضمنياً ، كضرب الودع مثلا ، لا يتجاوز إطارها إطار التخمين العشوائى ، متبنياً تقاليد ترتكز على الخرافات بشتى أنواعها والأساطير ، والتهريج فى أغلب الأحيان ، مستغلا لعملية البسطاء أو الباحثين بشكل أعمى لأى تعليل لمجرى حياتهم وما يعانونه . هذه التقاليد المرتكزة على الخرافات والأباطيل تتوارد من خلال تلقين وتكرار عفوى ، الانطباعات تعميمية لأحداث ممكن أن توجد لدى أى شخص ، وتغذى بتعاويذ وحيل ليس فيها ما هو جدى أو مميز . هذا بالنسبة للشعوذة وما يسير فى ركبها(٢) .

أما بالنسبة « للشيطنة SATANISME OU DIABOLISME » وما حولها كالعفاريت والأشباح والجن ، والمسخرين من الوكلاء والخدم لدعاة

---

(١) وهى أى SORCELLERIE مشـــتقة من SORS التى من معانيها معنى « مويئدة » أو TABLETTE نسبة للموائد التى كانت تكتب عليها رموز المشعوزين ، وتعاويذهم ، وأحجبتهم .

(٢) الى جانب المراجع الواردة فى الهامش السابق أيضا :
GARNDHA NANDI, **La Magie noire et ses mystères, les anulettes, les sortilège** ... et BONNE (G.), **Studies in Magical anulets chiefly greco-Egyptien.** Univ. Michigan Press. 1950.

الشيطنة ، فما هى إلا ضرب من ضروب الرؤية الخلفية لمساوىء النفس الدونية ، وانطباعاتها التحتية ، ترمز أساساً إلى الجانب الشرير عند المخلوقات ، إلا أنه قد تواجهنا هنا ، رؤية الأديان وتفسيرها . يمكننا أن نقول دون خوض وتفصيل أن الشيطنة وما حولها ، من خلال هذا التصور والتصوير الذى أوردناه تلتقى مع تصور الأديان ، خصوصاً الإسلام ، وهو الذى يعنينا كمثال حيث حددت على مستوى غير الملموس أو الملموس من خلفية النفوس وسوئها ، وربما نظرة عميقة فى « القرآن الكريم » تعطى لنا مزيداً من الرؤية الأصيلة البناءة ، فى هذا الموضوع إذا ما فسرناه على مستوى الجوهر ومعانى الهدف والغاية ، وكمجرد نموذج نسوقه « **ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر . . .** »(١) والسورة الكريمة « **قل أعوذ برب الناس ، ملك الناس ، إله الناس ، من شر الوسواس الخناس ، الذى يوسوس فى صدور الناس ، من الجنة والناس** » (٢) وقوله « **يأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان ، فاجتنبوه لعلكم تفلحون . إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة ، فهل أنتم منتهون** » (٣) ، فنرى تصور الجنة على مستوى وسوسة فى الصدور وسوء النفس ، ونرى الشيطانية الكافرة التى تعلم الناس السحر بشيطانية النفس التى توقع ، وتورث العداوة والبغضاء ، ولا شك أن من توسوسه نفسه ، وكذا لاعب الميسر يشعر ضمنياً فى أعماقه بهذه القيادة الشيطانية التى تسوقه وتدفعه إلى خلفية نفسية دونية . وحتى الذين يلتزمون بشكلية النص ، وحرفية الرؤية ، من أن هذه قد تكون ، وحدات ماكرة شريرة غير مرئية تجوب خارج نطاقها الطبيعى ، فهم أيضاً يسلمون ضمنياً ، أنه ليس للإنسان قدرة على تسخيرها ، كما يزعم الدجالون ، ودعاة الشيطنة ، وإنما العكس هو الصحيح ، فهذه

---

(١) البقرة : ١٠٢ .
(٢) سورة الناس
(٣) المائدة : ٩٠ ، ٩١ .

الوحدات هى التى تغوى وتعلم وتسخر النفوس المريضة ، وهنا نعود إلى القول بأنها تعيش فى نطاق النفوس والبشرية والصدور أو مشكلة لخلفيتها كما أشرنا ، وهكذا نجد حتى التفسير الشكلى الحرفى فى النهاية ، يقترب بمجازه من التفسير الذى يرتبط بالجوهر المقصود ، والمعنى الهادف ، كغاية من العرض القرآنى ، وهو تبيان سوء النفس وشرورها وإيقاعها ووسوستها ، إن هى حادت ، ولم تلتزم بالطريق السوى (١) .

أما « اللامنظور أو الخفى OCCULTISME » من أسرار الطبيعة والنفس مما لا زال مجهول الأسباب كلياً أو نسبياً ، فمن المسلم به أن المعرفة لم تصل إلى غايتها علمياً « SA FINALITE » بل المعرفة تتطور ، وحتى الأديان قد سلمت بذلك ، ففى القرآن الكريم تطالعنا هذه الآية الصريحة « **وما أوتيتم من العلم إلا قليلا** »(٢).وبالتالى ما زالت هناك ظواهر خفية التعليل يشمل العـــلم جاهداً وتحاول المعرفة المتطورة ، بإصرار تكشف سببيتها ، وتعليلها ، من الافتراض إلى التجريب ؛ والتطبيق الملموس . الإنسانية فى البداية كما هو معروف مرت من مرحلة جهل الأسباب والتعليلات للظواهر المعقدة ، ولو نسبياً ؛ ملتجئة إلى التبرير التلقائى فى نهج البسطاء ، والقول بالغيبي والسرى والمضمر والخفى والباطنى ... لكل شيء تعجز معرفة سببيته ويحتاج إلى مجهود وترويض فكرى ، وتجاوزتها بعد ذلك إلى مرحلة أخرى محاولة التكشف والتصفية والنقاء

---

(١) أما علاقة الاســلام بالسحر بصفة عامة ، فســوف نتعرض له فى المبحث الأخير من هذه الدراسة ، ولمن يريد التفصيل عن الشيطنة وما حولها يراجع :
BOIS (Jules), **Le satanisme et la Magie avec une étude : de J. — K. HUYSMANS**, Paris, 1896. et LANCELIN (Charles), **Histoire mythique de shatin.** I, de la légende au dogme, origines de l'idée démoniaque, ses transformations à travers les âges, d'après les textes et la tradition, son état actuel son avenir, II, le ternaire magique de statan, envoûtement, incubat, vampirisme, Paris 1903 en 2 vol.

(٢) الاسراء : ٨٥ .

الفكرى فى الرؤية وتحديد السببية خصوصاً فى بعض المجتمعات القديمة التى تصعدت بحضارتها نحو موكب النقاء ، والارتقاء الفكرى ، وصفاء الرؤية كما هو الحال فى الحضارة الإغريقية القديمــة كمثال ، واستمر موكب المعرفة فى التطور ، وهكذا رأينا كثيراً من المعطيات التى كانت فى حكم الألغاز فى عصور ما ، تصبح أموراً محددة الأسباب واضحة التعليل ، فى عصور تالية ، وموكب العلم وقدرته تتصعد بإصرار واتزان ، على مستوى الاستنباط ، والاستقراء والتجريب وتكشف القواعد والقوانين المسيرة للظاهرات ، ولكن رغم هذه المسيرة العلمية الأصيلة مازال هناك الخفى واللامنظور من أسرر الطبيعة والنفس يشكل ما تبقى من إطار علمية اللامنظور والخفى « SCIENTIA OCCLTALI » وما أوسعه من إطار هو بمثابة الحافز الذى يدفع الإنسان إلى مزيدمن الخلق ، والمواجهة ، ويبث فيه روح الاختراع والاكتشاف للمجهول ، والتقدم على مستوى السببية والتعليل ، ولقد اتخذت هذه المسيرة لها كشعار الاستيعاب المنهجى ، والإحاطة الأصيلة ، من الأعم إلى الأخص من الأبسط إلى الأعقد ، مشرحة للظاهرات ، ومتدرجة فى فهمها حتى الأعماق . هذا وقد استعمل البعض فى إطار تكسب المهنة واكتساب معارفها ، تعبير « عارف بسر المهنة » لمن وصلوا فى الاستيعاب والإحاطة بمهنتهم درجة تصعب على غيرهم الوصول إليها ، ولم يكتفوا بمجرد المزاولة بل الوصول إلى الأعماق ، وبالتالى التكشف على ما يعتبره العاجز عن الوصول أسراراً وألغازاً . وفى هذا المضمار عزى البعض ، ما جاء فى تركيب بعض الوصفات أو « الوصف FORMULES » على أنه من أسرار المهنة فى التركيب ، والتعرف على الخفى والمبطن ، من المعرفة ؛ سواء فى شكل وصورية التركيب ، أو فى جوهره ، ولم ينعزل اللامنظور والخفى من معطيات النفس الإنسانية عن بقية معطيــات الظواهر الأخرى ، فى تكشف أسرارها ومضمرها ولو نسبياً . منذ القدم مع أوصاف « الفيداز VEDAS » ووصفها ، والإنسان يحاول الوصول إلى تكشف الخفى والمبطن فى أغوار النفس وبطونها ، عواطفها ومشاعرها ولو باللجوء إلى التخمين أو التغميض إذ نجد فى الفيداز « وصفاً وتركيباً FORMULE » للتأثير فى العواطف

وسيرها ، تقول الوصفة لمن أراد أن يؤثر على عاطفة ،فتستجيب له مشاعر الحب عليه بأخذ أثر من الإنسان المرجو استعطافه ومحبته أو إخضاعه عاطفياً (لتكن قطرات من دمه ، أو سائلا من لعابه ، أو قطعة من ظفره أو أى أثر آخر ولو قطعة من ملابسه الملصقة بجسده) على أن يؤخذ نفس الأثر من الطرف الآخر . الأثران يطويان بعد ذلك فى شريط أحمر وعلى الشريط يكتب اسمى المراد تعاطفهما ،على أن يكتب ذلك بدم أحدهما . ثم يطوى الشريط بدوره شريطة أن يتلامس الاسمان حين الطوى ، ثم يحمل الشخص المستعطف أو المحب هذا الشريط الطلسمى ، تحت إبطه بعد أن يضعه فى داخل جسد عصفور ميت نشف أو جفف ، وبعد أيام يلقى بكل ذلك فى النار ، وبينما تتم عملية الاحتراق يجرى المحب أو المستعطف مسرعاً إلى الشخص المستعطف النافر فسوف يجده متجاوباً معه ، وخاضعاً له فى النهاية (١) . . . إن كانت هذه الوصفة ترتبط فى مظهرها « بسر المهنة » فى التركيب والصياغة ، إلا أنها فى جوهرها عارية عن كل تعليل فعلى وسببية ملموسة ، خصوصاً على مستوى معرفة عصرنا وقدراته العلمية ، وأصالته فى الإحاطة والاستقراء ، فهل سر المهنة هنا ، أو الفاعلية المقترحة زعماً ، جاءت نتيجة للهالة التى أحاطت آنذاك بمراحل تنفيذها وما يسايرها من انفعالات متبادلة متصلة : دم ، شريط ،عصفور ، نار ، رموز ، إشارات ، إيماءات ، علاقات جرى ، مواقف . . .الخ ؟ أم جاءت كمترتب على دور الوصاف وإيماءاته التنفيذية وما يستقرفى النفوس المتوهمة من قدرة ، هى فى الواقع تخيلية لا أكثر ولا أقل ، ولكن مع هذا

---

(١) لمزيد من التفصيل عن هذه الوصفة والوصفات الأخرى الواردة فى الفيداز وغيرها راجع :

CHOCHOD (Louis), **Histoire de la Magie et de ses dogmes**, Paris, 1949 VILLENEUVE (A) **Amour et Magie** Paris, Durville et les **Envoûtements de haine et d'amour** du même auteur ... etc.

مؤثرة بفضل توهم تغميضي للاقتناع بهما (١) كذلك وفى إطار اللامنظور والخفى من قدرات التحكم فى الظاهرات وسيرها ، أثير موضوع العلاقة بـين « اللامنظور والخفى » وبين « العرافة LA DIVINATION »ومدى التمايز بينهما ، بمعنى العرافة ، أما أن تعتمد على استعداد طبيعى وفراسة نظرية ، وتأتى نتيجة لهما (ولقدحمل لنا التراث العربى الكثير عن الفارسية وما حولها من التعرف الفطرى على أبعاد بعض الظاهرات) أو تعتمد على الاكتساب والمهارة التدريبية وترويض القـدرات لا فطريتها ورؤيتها التلقائية . ويلاحظ أن الإسلام قد وقف من قدرةالعراف أى كانمصدرها، موقف الداحض لها (٢) ولا تكمل جولتنا فى ما حول السحرمن ظاهرات شبهة تدخل فى محيط عرضنا لهذه المواجهة التحديدية للسحر من خلال ما يمكن أن يلتبس بمدلوله ومنطوقه دون التعرض لظاهرة جديرةبالإشارة، ونعنى بهاظاهرة « التنويم » .

« التنويمHYPNOTISME»الاصطناعى تميزاً له عن «النوم الطبيعى»(٣)، هذا التنويم عرفه الإنسان منذ القدم ، مارسه كهنة مصرالفرعونية

---

(١) بمعنى قدرة تغميضية ، أو الزعم بقدرة غامضة لبعض الوصفات والتركيبات «Une sorte de Pouvoir Mystique des formules»

وقد توسع فى عرض ذلك كل من :

CHOCHOD (Louis), **Occultisme et Magie,** Paris, Payot, 1945 et DANZEL (Th. W.) **Magie et Science Sectrètes,** Paris, Payot, 1947.

(٢) كما جاء فى الحديث المعروف « أتى عرافا يصـدقه فقد كذب بما انزل على محمد » ·

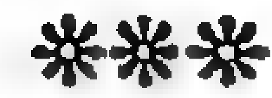
(٣) وليس أيضا « التنـويم المغناطيسى » كما التبس لـدى البعض فى البداية ، اذ « المغناطيسية MAGNETISME » ـ دون تعرض لتفصيلات تدخل فى اختصاصات علمية أخرى ، وتتجاوز بالتالى اطـار عرضنا هذا ـ هى اما مغناطيسية الأرض بمعنى حقل الجـاذبية TERRMAGNETISME أو مغناطيسـية الحـديد ، والنيـكل والكوبالت وقـوة جـاذبيتهم FERRMAGNETISME أو مغناطيسية الأكسجين ، والبلاتين والصوديوم وهى أقل جاذبية PARRMAGNETISME ، أو مغناطيسية الجـاذبيـة الخاصة بالاجساد ولها قوة معاكسـة للسـالفة DIAMAGNETISME ·· الخ · ويعـود الفضل الى التخلى عن فقد التنويم بالمغناطيسية الملتبس ، الى الجراح البريطانى « جيمس بريد » الذى أشرنا اليه أعـلاه فى عرضنا ·

فى علاج بعض الأمراض ، كما مارسه كهنة الإغريق ، وكانوا يؤثرون بفضله على أتباعهم فى معابد : أبولون ، وسرس ، واندور . ولقد أطلق على هذه المعابد « معابد النوم » ، وعرفه الهنود الأقدمون أيضاً ، ولقد انتشر عابراً التاريخ الوسيط وعصر النهضة ، ولكنه كان مغلفاً فى كثير من الأحيان بالأساطير مطعماً بالكهانة ، بل وفى بعض الحالات بالدجل . ويعود الفضل من بين من يعود إليهم الفضل فى تنقية إطاره ومحاولة الاتجاه به إلى العلمية إلى العالم النمساوى « مسمبر MESMER » فى أواخر القرن الثامن عشر ، ثم تطورت هذه الاجتهادات وهذه المحاولات فى الميدان الطبى والعصبى ، والنفسى على يد أمثال : الجراح البريطانى « جيمس بريد » الذى أكد منذ بداية النصف الأخير من القرن الماضى أن التنويم يمكن الاعتماد عليه طبياً والانتفاع به فى المعالجة . وقد دعم هذا الاعتماد موكب تنقيته من الخرافات، وحتى على التخلى عن نعته بالمغناطيسية والتباسه بها . ومن جانبه الطبيب الفرنسى « ليبولت » أو بصحة وفاعلية التنويم أمام المؤتمر العالمى للتنويم المنعقد فى باريس ١٩٠٠ ، واجتهد أيضاً فى هذا الإطار البناء كل من « شاركوت » و « برنهايم » . والقانون الإنجليزى من ناحيته ، أعطى له تعريفاً على أنه نوع من الإغفاء من خلال نوم اصطناعى يحدث لدى شخص على استعداد للإيحاء والتوجيه المتزايد ، « والجمعية الطبية البريطانية » بدورها ، بعد اجتهادات متكررة اعترفت منذ سنة ١٩٥٢ بإمكانية استخدامه دون مضاعفات كبديل للتخدير فى العمليات البسيطة وفى جراحة الأسنان وتحاشى آلام الولادة . كما اعترفت أيضاً بقيمته العلاجية فى الاضطرابات النفسية ، وإزالة أعراضها . . . وعليه ، وعلى ضوء ما تقدم، يمكننا أن نستخلص أن التنويم هو نوم اصطناعى يحدث بواسطة الإيحاء والسأم ، وذلك نتيجة لتكرار منبه معين ، والتركيز عليه ، وإعادة محددة مستمرة ، لا بواسطة مواد مخدرة ، أو مغناطيسية ، وهو بالتالى نوم جزئى يشبه النوم الطبيعى فى مظاهره ، وإن كان ، كما ذكرنا ، يتميز عنه فى نسبه ومصدره ، وأهم حالات التنويم ومراحله : الحالة الاستهوائية ، حالة

التشنج والصمول ، حالة السرمنة والمكاشفة ، حالة الذهول واللاشعور(١).

ولقد استعمل في التحليل النفسي للكشف أثناءه عن الاضطرابات النفسية والدوافع الغائرة ومصدر عقدها ، ومن المستعملين نذكر على سبيل المثال لا الحصر « هادفيلد » . أثناءالحرب العالمية الأولى ، وكذا«ماكسويل» و « هلمونت » « وبرنمان» ، و « فيشر » وغيرهم الكثير . إلا أنه يلاحظ أن « سيجموند فرويد » لم يتحمس له كثيراً في التحليل النفسي كما هو معروف (٢) .

بقي علينا إذن أن نحدد نقطة جديرة بالعرض في إطار التصدي للسحر وما حوله،ماله وما عليه ، ونعني بذلك علاقة السحر بالدين والتباسه به ، وبمعطياته منذ القدم ، وهو موضوع المبحث التالي باختصار .



---

(١) Suggestif Stat, Cataleptic Stat, Somnambulic Stat, Lethargic Stat.

(٢) لمن يريد التفصيل عن هذا الموضوع ، أو يستقي من دراسات فرويد يراجع :

FREUD (S.), **Ueber Psycho-analyse**, 1910, und, **Vorlesungenzur Einjührungin die Psycho-analyse.**

وكذا ما ترجم له بالعربية مثل : **مقدمة في التحليل النفسي** (ترجمة د . اسحق رمزى) **والموجز في التحليل النفسي** (ترجمة د . سامي محمود علي ، وعبد السلام القفاشي) القاهرة . دار المعارف ١٩٧٠ .

المبحث الرابع

مدى علاقة السحر بالدين

سنتعرض لمدى علاقة السحر بالدين فى حيز محدود ، وفى شكل مركز ، دون خوض فى تفصيلات قد تجد مكاناً لها فى إطار دراسة أنتربولوجية متكاملة عن ظاهر السحر فى المجتمعات البدائية . إذ من المسلم به أن موضوع السحر قد أشبع بحثاً فى أبعاده المتعددة من الناحية الأنتربولوجية . تعرض له من بين من تعرضوا له من الأنتربولوجيين على سبيل المثال « فريزر » ، ومن الديركايميين من « ديركايم » نفسه إلى « مارسيل موسى » و « هوبرت » و « ليفربرول » و « هوفلان » ، وعالجه أيضاً « أليه » كما درسه « كودرنجتون » فى إطار « المانا » ، وكذا « لمان » و « مالينوسكى » ، والقائمة طويلة لو توخينا الحصر .. والذى يعنينا كما أشرنا سلفاً أن نستخلص من مواجهة هذه الاجتهادات العلمية خطوطاً رئيسية ، وتخريجاً مركزاً ، نرى من خلاله مدى علاقة السحر بالدين .

« فريزر » الذى يرى فى السحر تطبيقاً وهمياً يعتمد على ترابط المعانى عن طريق المشابهة والتناسق والاتصال ، ويعتمد لدى السحرة البدائيين على توخى تتابع الأحداث الطبيعية بالضرورة ، دون تدخل عوامل روحية أو مادية ، ولا يتحكم فيه الانفعال ولا العاطفة ، وأن مزاولته رغم بساطتها تعتمد على تفوق لدى الساحر ، يميل إلى القول (نعنى فريزر) بأن السحر سابق للدين ، وقوى العلاقة به ، بل ذهب إلى حد القول أيضاً أن الدين خرج من السحر (كما خرج منه العلم والفن) بمعنى أخطاء الساحر ، وعدم تجاوب الطبيعة معه دائماً ، يمهد للتسليم بوجود

قوة أخرى متجاوزة وعالية تغطى هذاالقصور،ومن ثم كانت الأديان التى هى ، إذن ، مرحلة تالية للسحر انطبعت بالتعقد فى الطقوس والمزاولة واتجهت لإبراز أصالتها إلى التنافر مظهرياً مع السحر ، وفسر « فريزر » على ضوء ذلك العداء المستحكم بين الكاهن والساحر(١) .

بينما يرى « أليهْ » العكس ، مع التجاوز فى التفصيلات ، فعنده السحر لاحق للدين لاسابق له . نشأ عنه (أى عن الدين) بعد أن أفسد بعض عناصره (٢) ، أما الديركامية ، فبعد انطباعات ديركايم نفسه من خلال الأشكال المبدئية للحياة الدينية وربطها بالأنسقة الطوطمية ، وميله لرؤية السحر كرد فعل للطابع الجماعى الذى كان يسيطر على نشأة الظاهرات الاجتماعية فى المجتمعات البدائية(٣) اتجهت الديركايمية مع « ليفربرول » إلى القول بصعوبة العزل بين الدين والسحر ، حيث إنهما ينتميان إلى جوهر واحد غطى « فترة ما قبل الدينية »فى معطيات العقلية البدائية الانفعالية ، وعلى عكس « فريزر » يعطى « ليفربرول » للانفعالية بما فيها من عاطفة ، وانتشاء ، قدرة أساسية فى السحر وتفاعل الساحر من خلال طقوس معقدة ، وليست بسيطة (كما رآها فريزر) بمافيها من مراحل ذهولية ، وانجذابية ، وغموض مكانى ، واختيار زمانى . ويتحفظ أيضاً على « فريزر » فى تكيفه للبدائى من خلال معطيات ، ومقولات خاصةبالعقلية المتحضرة ، كاستخلاص السببية والربطوالمشابهة والتناسق والاتصال بين المعانى ، واستبعاده للانفعالية التى تشكل القدرة

---

(١) راجع من بين مؤلفات « فريزر » الكثيرة :
FRAZER (J.G.), **The Magic Origins of Royalty,** 1905 et trad. en Franç. **Les Origines Magique de la Royauté,** Paris, 1910 and, **Myths of the Origin of Fire. 1930.**

(٢) لمن يريد التفصيل عن رأى « أليه » يراجع :
ALLIER (R.). **Magie et religion,** Paris, 1935.

(٣) من بين الدراسات الواسعة لديركايم راجع على سبيل المثال فى هذا الموضوع :
DURKHEIM (E.). **Les formes élémentaires de la vie religieuse,** 1912 et réd. plus. fois. éd. Recent. 1960.

الأساسية لعقلية البدائى (١). ومن الديركايميين أو من اجتهد تحت شعارها، من اهتم مثل « هوفلان » أساساً بتحديد علاقات السحر من خلال التشريع وأثره(٢) . ومنهم من وسع اهتمامه « كمارسيل موسى وهوبرت » متعاونين بدارسة السحر فى كل أبعاده فى المجتمعات البدائية من خلال نظرية عامة ، فى محاولة لتحديد أصوله ، ووصف شعائره وطقوسه ، متجه به إلى التمييز بينه وبين الدين فى البداية ومع شيء من التردد . « فوسى وهوبرت » يريان أن الظاهرات الدينية لها قداسة والتزام جماعى مشترك، بينما السحر على العكس من ذلك . غير أنهما فى النهاية اتجها إلى ربط السحر والدين بأصل واحد وهو « المانا » فالمانا لها جانب مقدس يمثل أصل الدين ، وجانب غير مقدس يمثل أصل السحر .

ومهما كانت اجتهاداتهما فهما ملتزمان فى النهاية بتخريج ديركايمى مقنع للسحر من خلال الوجدان الجمعى والفعل الجماعى(٣) . ولعل « كودرنجتون » بدراسته لشعوب ميلانيزيا البدائية ، يعتبر فى صدارة من ربطوا السحر بظاهرة « المانا » ومحاولة تحديدها عند هذه الشعوب على أنها قوة خفية كامنة فى الأشياء وبالتالى ليست قوة « علوية » كما هو الحال فى الدين ، ولكن لاتـكمن فى شيء بذاته ، بل هى « قوة سحرية MAGICAL POWER » خارقة للطبيعة تمكن لمن يكتشف سرها

---

(١) لمن يريد التوسع بالنسبة لنظـــريات « ليفى بريل » يراجع من بين مؤلفاته فى هذا الموضوع :

LEVY-BRUHL (L.), **Le surnaturel et la nature dans la mentalité primitive,** 1931, **La Mythologie primitive,** 1935, et **L'Experience mystique et les symboles chez les Primitifs.** 1938.

(٢) يراجع « لهوفلان » دراساته :

HUVELIN (P.), **Les tablettes magiques et le droit rimain,** 1900 et **Magie et Droit Individuel** in **A.S.** X. 1907.

(٣) للتفاصيل راجع :

MAUSS (M.), **Les Origines des pouvoirs magiques dans les sociétés australiennes, 1904 et Esquisse d'une théorie générale de la Magie** (coll. H. Hubert), in **A.S.,** VII 1904.

من السحرة أن يسيرها فى كل شيء ويوجهها كيفما يشاء وعليه فكل السحرة لابد لهم من معرفةسر « المانا » بطريقة أو بأخرى(١) . وجاءت دراسات « ليمان » لتميز بين ثلاثة أنواع من « المانا السحرية » مع دراسة لمعانيها المختلفة عند الميلانيزيين ، ولكل نوع من هذه الأنواع ثلاثة تأثيرات خفية . منها نوع اختصاصتأثيراته الخفية فى الإنسان فرداً وجماعة تصيبه ، أو تمنحه قوة ، والنوع الثانى اختصاص تأثيراته الخفية من خلال الحيوانات والطيور والأشياء الجامدة ، ولايستطيع الإنسان أن يتحكم فى هذا النوع ليستخدمه فى الشعائر السحرية إلا بعد مشقة . أما النوع الثالث فاختصاصه عالم الإله والأرواح يسخر فى إطاره(٢) وأيدت ملاحظات « مالينوسكى » أيضاً ، من خلال دراساته عن جزر « التروبرياند » ما للسحر من دورهام لدى البدائيين وتنوع الاستفادة به: فى الزراعة ، فى الحب ، فى صناعة السفن ، فى حماية الأطفال من المرض ، والصحة ، والموت ، كذلك رؤساء القبائل يستفيدون منه بدورهم للتغلب على أعدائهم عن طريق السحرة الذين لايمكن تشبيههم بالكهنة فى مزاولة شعائرهم وعقائدهم(٣) .

---

(١) راجع دراسته عن الميلانيزيين لمزيد من التوسع :
Condrington, **The Melanesians.**

وفكرة عنها عند بدوى ، فى مقالته **السحر وعلاقته بالدين** ، مجلة كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية ، المجلد الرابع ..

(٢) لمن يريد التفصيل يراجع دراسة عن المانا :
LEHMANN, **Le Mana**

وتلخيص لها عند بدوى ، **المقالة السابقة** .

LEENHARDT, (M.), **Do Kamo,** 1947.

ولقد قدمه الى العربية طاهر واعزيز فى اطروحته بكلية الآداب بالرباط سنة ١٩٧١ (تحت الطبع) .

(٢) راجع لمزيد من الاحاطة بدراسة مالينوسكى فى هذا الموضوع :
MALINOWSKI (B.), **Argonauts of the western pacific 1922.**

كذلك لاحظ ان « برجسون » فصل أيضا السحر عن الدين فى دراسته :
BERGSON (H.), **Les deux sources de la morale et de la religion.**

راجع بدوى ، المقالة السابقة ، كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية مجلد ٤

وعليه يبدو من الاتجاهات الرئيسية للدراسات الأنتربولوجية والتى قدمنا نماذج منها على سبيل المثال لا الحصر ، أنه رغم العلاقة — الموجودة بين الدين والسحر فى مظاهر المجتمعات الأولى البدائية سواء على مستوى أصول الظاهرتين أو ردود فعلهما ، غير أن هذه العلاقة لاترتفع إلى درجة التشابه وعدم التمييز بينهما ، أو إذابة أحدهما فى الآخر كسابق أو لاحق . ويمكننا أن نميز الدين من السحر بوضوح من خلال مسطحين محددين فى التحليل :

١ — نميز بينهما فى موقفهما من الطبيعة .

٢ — نميز بينهما فى جوهر المعتقدات والشعائر وهدفها لدى كل منهما.

الدين أمام الطبيعة فى موقفه يوسط الإله بينما السحر يحذف هذه الوساطة . الدين جوهر معتقداته وشعائره تدور حول علاقة الخالق بالمخلوق ، وتكييف كل أبعادها من خلال ذلك دنيوية وأخروية ، وبالتالى لايمكن تصور دين أبدون إله ، بينما السحر العكس . ولقد اتخذت الأديان نتيجة لهذا التمايز الجوهرى ، مواقف محددة من السحر ، وليس بسبب تنافر مظهرى كما زعم « فريزر » . وإنما لتباعد مؤسس فى الجوهر والوسيلة والهدف . ولعل الإسلام كدين ، موقفه من السحر يعطى نموذجاً يعنينا عملياً ، كمجتمعات تدين بالإسلام نبرزه فى إطار مدى علاقة السحر بالدين .

***

المبحث الخامس

موقف الإسلام من السحر

ولكى نحدد موقف الإسلام كدين ، لا المسلمين كبشر ، من السحر وما حوله ، وبإيجاز ، علينا أن نعتمد أساساً على المصدر الرئيسى للإسلام ونعنى به القرآن . القرآن يكذب السحر ولا يصدقه ، ويسفه السحرة ويناقضهم ، ويعطى لهذه الظاهرة ، ظاهرة السحر تحديداً سببياً لجوهرها ، معرياً لها عن كل مزاعمها ، وذلك بما يتمشى والرؤية الموضوعية لمواجهة السحر .

القرآن لم يعط للسحر على مستوى جوهره ، قدرة إعجازية خارقة ، وإنما هو مجرد « تعلم مكتسب وصناعة » تقول الآية : « **إنه لكبيركم الذى علمكم السحر** » (١) ، وفى آية أخرى : « **وقال فرعون ائتونى بكل ساحر عليم** » .(٢) كما نجد آية تصف السحر بكل وضوح أنه صناعة كيدية غير مفلحة « **إنما صنعوا كيد ساحر ، ولا يفلح الساحر حيث أتى** » (٣) . وفى مجال تفنيد فاعليته المزعومة يطالعنا القرآن بتفسير سببى موضوعى ، يشرح من خلاله طبيعة السحر ، وكيف يحدث عملياً ، قول الآية « **قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى** »(٤) إلى قوله « **قالوا ياموسى إما أن تلقى وإما أن نكون أول من ألقى . قال بل ألقوا ، فاذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى .** »(٥) . لم يسلم القرآن

---

(١) طــه : ٧١ ·
(٢) يونس : ٧٩ ·
(٣) طــه : ٦٩ ·
(٤) طــه : ٦٢ ·
(٥) طــه : ٦٥ ـ ٦٦ ، والآية الأخيرة وهى التى تعنينا فى الاستشهاد رقمها ٦٦ ·

بقدرة السحر وخوارقه ، وإنما عزا الزعم بهذه القدرة إلى مجرد التخيل. لم يقل القرآن (فإذا حبالهم وعصيهم تسعى وتتحرك) . فهى لم تسع ولم تتحرك مطلقاً فهى عصى وحبال كما هى ، جامدة وسعيها وحركتها مجرد تخيل لا أكثر ولا أقل . وهكذا أعطى لنا القرآن تفسيراً سببياً موضوعياً لظاهرة السحر . كذلك نفى القرآن عن السحر أى إيجابية اجتماعية ، فهو عمل فاسد يبطل ولا يعتمد عليه ،تقول الآية القرآنية : « ... **قال موسى ما جئتم به السحر ، إن الله سيبطله ، إن الله لايصلح عمل المفسدين**»(١). وغنى عن التعريف موقف محمد صلى الله عليه وسلم رسول الإسلام ، من السحر وتنفنيده له ، بل حتى لما حوله من ظاهرات شبيهة كالعرافة مثلا ، كما جاء فى الحديث المشهور والذى أشرنا إليه سابقاً . فى هذا العرض ، من قوله « من أتى عرافاً يصدقه ، فقد كذب بما أنزل على محمد » ، وهكذا حينما ندقق النظر فى جوهر رؤية القرآن ، ولا نقرأه قراءة سطحية روتينية ؛ لاتبرز لنا قدرة المعانى وأصالتها ؛ نجد أن القرآن يلتقى مع معطيات الاتجاهات العلمية المفسرة للسحر ؛ على أنه ظاهرة كبقية الظاهرات تدرس ، وتشرح وتحدد سببيتها . كما يبدو لنا من الخلاصة التى سنعطيها الآن لعرضنا هذا .

الخلاصة : يمكننا أن نقول ، السحر ظاهرة معاشية ، تعتمد أساساً فى تبرير معطياتها على « تعرية المسحور من الإرادة EXTERIORISATION DE LA VOLONTE وذلك بفضل وسائل وطقوس ، ووصف معينة مهمتها المساعدة فى خلق إطار التعرية وظروف التعويم للإرادة ، بعد شل قدراتها التركيزية الطبيعية ، والاتجاه بها إلى رؤية مهتزة تتبلور فى محيط من التخيل وآفاقه ، بعد فقدان الشعور الضابط للإرادة لدوره ، فيعطى له إجازة ، وتعطل طاقته العازلة الشعورية ، فتسير الأمور المرئية ، والملموسة والمحسوسة ، والمسموعة فى غيبة الإدراك الواعى وبرخصة منه ،

---

(١) يونس : ٨١ .

فى إطار إدراك متخيل . تتحكم فيه الظروف التى خلقها الساحر وأصداؤها، فتصبح واقعاً ، وعليه فدراسة السحر كظاهرة ، لابد وأن يتعرض لهامن مختلف الزوايا والجوانب على ضوء بيئتها الاجتماعية والنفسية ، وتعدد عواملها المشكلة لسببيتها ، والمهيئة لها ، والمساعدة والمساهمة على انتشارها من خلال نظرة شمولية تهتم بجوهر الظاهرة ، بقدر اهتمامها بمتناقضات الواقع الاجتماعى الذى تعيش فيه . بقى سؤال بسيط قد يسأله سائل وهو -وبعد هذا كله ، ومع كل هذا - هل للساحر والسحر قدرة حقة، وفاعلية ملموسة ؟ نقول للإجابة على هذا السؤال، يفتش عن هذه القدرة المتخيلة، وهذه الفاعلية المفترضة المتوهمة ، ويبحث عنها لا على مستوى الساحر بقدر ما يبحث عنها ويفتش ، عند الذى عريت إرادته وسلبت ، واهتزت معطيات إدراكه ، فغابت قدرة تعقله فى ضباب التخيل وسحبه ، فجعل منها ، متوهماً ، حقائق له ، ونعنى به ، وبكل بساطة : المسحور .



الفصل الخامس

إنسان القرآن
من خلال أبعادِه الاجتماعيّة

بسم الله الرحمن الرحيم

انسان القرآن من خلال أبعاده الاجتماعية

لقد جاء القرآن بمبادىء ، وقواعد ، ومفاهيم ، لا تقل روعتها الاجتماعية عن روعتها الروحية والفلسفية . لقد شرع القرآن للإنسان اجتماعياً ، شرع له على مستوى الأسرة ، والجماعة ، والمجتمع العام SOCIETE GLOBALE نعني به الدولة على (سبيل المثال) محدداً له أسساً عامة لسلوكه الجماعي ، وتنشئته ، وتدرجه ، وعلاقاته الاجتماعية ، بما فيه صلاحه ونجاحه ورفعته ، معللا لذلك فى كثير من الأحيان ، تعليلا واقعياً، عملياً ملموساً . ولكى نبرز أصالة (سوسيولوجية) أو اجتماعية إنسان القرآن لابد لنا من تحديد أبعادها على ضوء المقارنة باجتماعية إنسان ما قبل القرآن فى الجاهلية ومعطياته الانتربولوجية أولا ، وعلى ضوء المقارنة باجتماعية إنسان الأديان الأخرى ثانياً . ونظراً لضيق إطار هذا العرض ، نقتصر فى مقارنتنا على بعض النماذج المحددة ، وذلك على سبيل المثال لا الحصر . إلا أن هذه المقارنة ستدفعنا بدورها إلى تحفظ تمهيدى ، خاص بمدى علاقة تصوير إنسان القرآن بالبيئة التى نزل فيها هذا الكتاب المقدس. لقد حاول بعض عشاق اللغو من المستشرقين (مع اعتزازنا العميق بمن صدق، وأخلص القول من بقيتهم) أن يقدموا القرآن، وذلك لحاجة كنسية أو مغرضة فى نفس يعقوب ، كصدى ، لبيئته ، وكمترتب عليها ، وكتطور طبيعى لحدثها الاجتماعى ، على سبيل المثال نذكر من هؤلاء : محمد حياته ومذهبه لتور أندريا(١) ، المدخل لسوسيولوجية الإسلام لشلحود(٢) .

---

(١) Tor Andrae, Mahomet, sa vie et sa doctrine (Trad. Fran :- Paris. 1945).

(٢) Chelhod (J.). Introduction à la Sociologie de l'Islam, de l'aminisme à l'universalisme, Paris 1958.

وكذا المدخل لسوسيولوجية الإسلام د . ليفى(١) وخصوصاً « القس لامناص » الذى وضع دراسات عدة عن البيئة الاجتّاعية عشية ظهور الإسلام ، لنفس الغرض ، أى للتدليل بشكل غير مباشر على سلبية أصالة القرآن الروحية ، ففشلوا فى الهدفين.فشلوا فى الهدف الأول . إذ لو أن القــرآن جاء صدى تلقائياً وحدثياً ، لدعم ديالكتيكياً أيلولة متناقضات قيم إنسان الجزيرة ، فزكى روح الذاتية ، والنعرة، والاعتزاز بعصبيته زكى نزعاته ، ومواقفه ، واتجاهاته ، بمعنى أصل الظاهرات الانثربولوجية والاجتماعية الموجودة آنذاك بطريقة ما ، ولـكن العكس ، القرآن تحفظ عليها ، وفى كثير من الأحيان عارضها ، وفندها ، فى شكل إنسانى سامى يفوق قمة ما وصلت إليه الوحدات الحضرية المعاصرة فكرياً، فى تطورها الاجتماعى ، لدى عواصم إمبراطوريات القرون الوسطى . وفشلوا أيضاً ، وبالتالى ، فى الهدف الثانى ، وهو التدليل بشكل غير مباشر عبر هذا الطريق ، على سلبية أصالة القرآن الروحية . إذ أنه يمكننا أن نتكلم عن الأصالة الاجتماعية فى الرسالة القرآنية بما يؤكد الأصالة الروحية ، ويدعمها بفضل طبيعة القرآن المميزة ، وتفوقه اجتماعياً على جميع التشريعات البشرية المعاصرة،وسأترك هذه النقطة الدقيقة لأوجست كونت (أحد مؤسسى السوسيولوجيا وهو الوضعى الغير ملتزم روحياً) ليعرف بها فى نهاية هذا العرض ، ولا نقف بتحفظنا هذا ، عند هؤلاء المستشرقين من عشاق اللغو ، والحلول الوصولية السهلة ، بالنسبة لأقدس معطيات الإنسان ، بل نتجاوزهم إلى النقيض ، هذا النقيض نعنى به جماعة المتحمسين لأصالة روحانية القرآن لا عن طريق البحث العلمى الرصين ، ولكن عن طريق اللغط ، والتعبئة الكلامية العاطفية والانفعال الإبداعى ، فيبترّوا فى شكل متسرع ، متهور ، معارض لروح القرآن نفسه ، اجتّاعية إنسان ما قبل القرآن وأصالته الانثربولوجية عن اجتّاعية إنسان

Levy (R.) an introduction to the Sociology of Islam, (١) London 1931 2 vol.

القرآن ، وذلك حين يصفون مجتمعات ما قبل القرآن بالفطرية والبدائية ، بل وبالهمجية على سبيل التعميم ... الخ ، مع أن القرآن نفسه أكد استمرارية إنسانية الإنسان ، واجتماعيته . كذلك لا يمكننا أن نتصور رسول القرآن نشأ فى بيئة هذه معطياتها . القرآن عبر قصص الأنبياء أكد وجود نماذج إنسانية صالحة اجتماعياً ، وأبقى على الخير منها وأجازه ، وأعطى لرسالته بالتالى طبيعة تكميل وتكامل مع سبق ، وسد القصور ، ليصل إلى الإنسان الأكثر كمالا ، فى مجتمع أكثر كمالا ، وعليه ، وعلى ضوء هذا التحفظ يمكننا أن نجمل : إن إنسان القرآن اجتماعياً جاء نموذجاً مستوعباً لما صلح من ماضى الإنسان ، متجهاً به إلى الكمال فى التشريع بما يتمشى ، ومتطلبات الحياة الاجتماعية المتجددة ، نموذجاً خرج بالإنسان من نمط المجتمعات المحلية ، إلى نمط المجتمع العالمى ، شرع « للإنسان الشامل » فى كل زمان ومكان ، تاركاً لمبادئه أبعاداً مرنة ، مبسطة ، هى مصدر قوته الاجتماعية ، وأصالته التشريعية تعتمد على التعليل للظاهرة ، والتخريج لها أكثر مما تعتمد على الالتزام الملقن ، والحتمية المجردة ، وقف القرآن فى تصويره للإنسان اجتماعياً موقفاً وسطاً بين « الحتمية السوسيولوجية » وبين « الحرية الإنسانية » فكان فى ذلك خير تشريع جسد الحقيقية الاجتماعية للانسان فى شكل واقعى ملموس ، مؤكداً معالم « قارية المجتمع » و « مظاهر حركيته » عبر روح عملية رائعة .

وما علينا إلا أن نتدبر فيما جاء به القرآن الكريم من مبادىء تحدد مدلول الطبيعة الاجتماعية البناءة للانسان ، وتكيفها سواء على مستوى الأسرة أو الجماعة ، والمجتمع العام (نعنى به هنا الأمة ، أو الدولة ، أى تاج التجمعات وأعمها زمانياً ومكانياً) .

بالنسبة للأسرة أجاز القرآن ما هو صالح من قواعد السلوك والعلاقة ، وعالج ما يمكن إصلاحه بشكل واقعى عملى ، وردع ما هو غير قابل للإصلاح دون تردد أو مراوغة ، تمثلا من نماذج البنيان الاجتماعى للأسرة وأنواع الزواج الموجودة فى الجاهلية بمرحلتيها ، وقد عد من هذه النماذج

عالم الأثربولوجيا السامية : روبيرتسن سميث «الصداقة والزواج فى الجاهلية»(١) ما يقرب من عشرة : زواج الشغار ، الاستبضاع ، الرهط ، المؤاجرة ، المشاركة ... الخ ، أجاز القرآن فقط الزواج الصالح منها ، وأعطى له أسساً رصينة تضمن استمرارية الإنسانية فى شكل صافى نظيف ، لم يعد الزواج لمجرد اشباع شهوة ، أو رغبة ،أو تكاثر فى الأولاد ، دون تحمل المسئوليات المترتبة عليه ، وإنما أصبح زواج الحقوق والواجبات بالنسبة للرجل والمرأة على حد سواء ، بشهادة من الله ورسوله ، ثم عالج القرآن ما يمكن إصلاحه من نماذج أخرى كان من الصعب بترها لشيوعها وعموميتها ولأسباب أخرى ، دون أن يحدث العكس. وهو اهتزاز بنية المجتمع برمته ، نعنى على سبيل المثال نموذج تعدد الزوجات ، فالقرآن كى يختار بين اهتزاز المجتمع برمته ، حين بتر إحدى دعاماته الحركية آنذاك ، وبين الحد من حركية هذه الدعامة وحصرها توطئة لإذابتها تدريجياً دون ردود عكسية ، اختار الحل الثانى ، فكان فى ذلك سوسيولوجيا فى نهجه ومن المسلم به كذلك ، أن تعدد الزوجات عرفته المجتمعات كظاهرة عامة حركية بما فى ذلك المجتمع المسيحى ، وما علينا إلا أن نراجع مؤرخ العصور الوسطى الكبير : هالن فى مؤلفه « أوروبا خلال العصور الوسطى»(٢) حيث أكد أن تعدد الزوجات كان مباحاً عند المسيحيين ، وكذلك الرق أيضاً ، بل وقد تحمست له الكنيسة ضمنياً فى كثير من المناسبات ، بينما لا نجد فى القرآن الكريم آية واحدة تدعو إلى استرقاق الأحرار ، بل كل آياته تدعو إلى تحرير المسترقين .

أما بالنسبة لموقف القرآن مما فيه خطر على الأسرة ، وبنيانها . واستمرارها فكان موقف الرادع المحذر دون تردد . موقفه من وأد البنات ،

---

(١) لمن يريد المراجعة :
Smith (W.R.), Kinship and marriage in Early Arabia, 1885.

(٢) Halaln, Europ during the middle ages vol. I p. 45.

من الزنى « ولا تقربوا الزنى » (١) الآية « لفروجهم حافظون » (٢)... الآية ،وموقفه من رمى المحصنات ،وشيوع الفاحشة وخطر ذلك على الأمة برمتها « إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا »(٣) الآية حتى مظاهر السلوك فى الأسرة وآدابه ، وما يسير الأسرة من علاقات حدد القرآن مبادئ سامية له « يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم ... »(٤) الآية ،وما ورد من آيات أخرى فى سورة الحجرات ، وقوله « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه » (٥)... وما تلا ذلك من آيات تمثل أروع قواعد السلوك ، وقوله « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ، ذلك أزكى لهم ، إن الله خبير بما يصنعون وقـــل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن » . . . . الآية (٦) . وقوله : « يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن » . . . (٧) الآية ، وقوله : «لا يسخر قوم من قوم » . . . (٨) الآية ، وقوله : « وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه » . . . (٩) الآية ، ولعل أروع ما جاء من مبادىء اجتماعية فى القرآن ، خاصاً بالأسرة ، مبدأ تحمل مسئولية قيادة الأسرة ، فالأسرة كلى تجمع لا بد لها من رائد يتحمل المسئولية ، قد سلمنا بذلك فى الجيوش ، فى القوافل ، فى المراكب ، فى الدول ، فى الادارات ، ولا نسلم به فى الأسرة ليكون لها رائد قوام ، ومن هنا يكون الفهم السليم للآية : « الرجال قوامون على النساء »(١٠) هو قوام رائد ، وليس بمتسلط جبار على المرأة ، ولو أراد القرآن ذلك لقال : الرجال أسياد على النساء ، وإنما قال« الرجال قوامون » (هذا مع اعتزازنا بالتفسيرات الأخرى) ، لم يقف القرآن بالإنسان اجتماعياً عند تحديد علاقته وسلوكه فى الأسرة فقط ، بل تجاوزها إلى الجماعة والمجتمع العام ، فأعطى أساساً

---

(١) الإسراء : ٣٢
(٢) المؤمنون : ٥
(٣) النور : ١٩
(٤) النور : ٢٧
(٥) الاسراء : ٢٣
(٦) النور : ٣٠ ، ٣١
(٧) الحجرات : ١٢
(٨) الحجرات : ١١
(٩) القصص : ٥٥ .
(١٠) النساء : ٣٤

للعلاقات الناجحة والسلوك الحسن بما يساعد على تدعيم المجتمع وتفضيله وحدد الآفات الاجتماعية التي تسمم العلاقات ، وتفسدها ، وتسيء إلى السلوك وتخلله ، ما علينا إلا أن نطالع الآيات البينات قوله « ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً ، وقال إنني من المسلمين . ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم . وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم »(١) وقوله » « وجادلهم بالتي هي أحسن » (٢) وقوله : «ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك » (٣) وقوله « ومن يكسب خطيئة أو إثماً ثم يرم به بريئاً فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً » (٤) وقوله « إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر» (٥) وقوله : « قل لا يستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث » (٦) وقوله : « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة » (٧) وقوله « فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه » (٨) وقوله « لا يحب الله الجهر بالسوء من القول»(٩)وقوله «لكيلا تأسوا على مافاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم »(١٠) وقوله « وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم » (١١) وقوله « إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم »(١٢)وما علينا إلا أن نتأمل وقد يطول بنا الاستشهاد، لو أحصينا في القرآن من روائع ، تحدد قواعد السلوك الصحيح، ومبادىء كل ما ورد العلاقات السلمية ، التي تعتمد على حسن المعاملة، إنسان القرآن كما صوره اجتماعياً ، إنسان سمح متسامح مون متوازن، متطلع نشط ، عامل مجتهد، صادق الوعد مع غيره ، نزيه لا يكره ولا يحسد ، ولا يغتاب ، ولا ينافق ولا يرتاب ، شعاره الإخاء ، ووسائله المودة ، والمحبة ، والوفاء ، ابتعد به

---

(١) فصلت : ٣٣ ـ ٣٥
(٢) النحل : ١٢٥
(٣) آل عمران : ١٥٩
(٤) النساء : ١١٢
(٥) المائدة : ٩١
(٦) المائدة : ١٠٠
(٧) يونس : ٢٦
(٨) المائدة : ٣٩
(٩) النساء : ١٤٨
(١٠) الحديد : ٢٣
(١١) النحل : ٩١
(١٢) الاسراء : ٧

القرآن عن الخبث ، والمكر ، وخفايا الادراك السيء المضمر ، والسلوك الحاقد الخفى ، أليس القرآن القائل « **ومن الناس من يعبد الله على حرف ، فإن أصابه خير اطمأن به ، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة . . .** » (١) ، اجتماعية إنسان القرآن اتجهت به إلى تحقيق اسمى نماذج المجتمعات العامة (بمعنى الأمة والدولة) بناء على تنشئته تنشئة سليمة ، وتدرج اجتماعى صائب ، وتصعيد رصين قوامه : الكفاءة ، والعمل : « **قل هل يستوى الذين يعلمون ، والذين لا يعلمون ، إنما يتذكر أولوا الألباب** » (٢) وقوله : «**إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا**»(٣) وقوله : « **وقل اعملوا فسيرى الله عملكم** » (٤) وقوله : « **وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كل على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير ، هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم** »(٥) القرآن دعا إلى مجتمع العمل وفرق بين الفقير المحترف ، والعاطل بالهواية ، المتكاسل عن السعى ، وبين الفقير بالضرورة واستحالة القدرة على العمل ، فجعل لهذا حقاً فى أموال المسلمين ، فكانت الزكاة ، وحقر الأول وحارب فيه روح التسول والتكاسل وكره فيه . والتقى القرآن هنا فى تجريحه للتدرج الاجتماعى مع أحدث ما قال به عميد علماء الاجتماع سان سيمون ، حين أكد أنه فى مجتمع اليوم والغد مجتمع التقنية والصناعة ليس هناك غير طبقتين ، طبقة العاملين بعضلاتهم أو عقولهم وطبقة العاطلين المعطلين لعضلاتهم وعقولهم أى طبقة المنتج لما يستهلك ، وطبقة المستهلك لإنتاج الآخرين ، كذلك القرآن حين قوله بأصالة « التراث » وأن الإنسان ابن بيئته التقى أيضاً مع أحدث النظريات وأرجحها فى الانتربولوجيا التراثية والسوسيولوجيا القائلة بأولوية التراث ، وما علينا إلا أن نتأمل الآية : « **والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع ، والأبصار والأفئدة لعلكم**

---

(١) الحج : ١١
(٢) الزمر : ٩
(٣) الكهف : ٣٠
(٤) التوبة : ١٠٥
(٥) النحل : ٧٦

تشكرون » (١) ؛ هنا نلاحظ تفوق التراث الاجتماعي على التراث البيولوجي في تكوين الإنسان ؛ لم يكتف القرآن بتصعيد الإنسان اجتماعياً ، وبناء على قواعد رصينة عملية في داخل المجتمع العام ، وإنما أعطى أيضاً أسساً ملهمة، لما يجب أن تكون عليه مظاهر السلوك والعلاقات ، في المجتمعات العامة ، ولما فيه خير الإنسانية وسعادتها وتحقيق مجتمعها ، الأفضل والأخير وعلل «نظرية الأجناس» تعليلا بناءاً رائعاً . « **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا** » (٢) (لم يقل لتتعصبوا) وقوله : « **وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا** » (٣) حتى حين تتحول العلاقات إلى تنافر ، قد يؤول بها إلى أعنف صورة هي الحرب ، حدد القرآن المبادىء ولم يجعل الإنسان المسلم ينافر حباً في المنافرة والإغارة كما كان الحال في العصور الجاهلية ، حيث كان المجتمع يختنق تحت غبار خيول المغيرين وحماساتهم وصليل سيوفهم حباً في الإغارة والسيطرة وإنما لهدف إنساني ، ففرق بين الحرب الدفاعية عن كلمة الله لتكون العليا ، أي كلمة الحق والعدل ، والحرب الهجومية بغية الإغارة والنهب وإخراج المؤمنين من ديارهم . قال : « **لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم** » (٤) ، وقوله : « **وإن جنحوا للسلم فاجنح لها** » (٥) ، وقوله : « **قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم** » (٦) وقوله : « **وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ...** » . . (٧) هذا السمو وهذا الحرص على بناء المجتمع سليما ، واستغلال طاقاته في البناء لا في الحروب والإغارة، وتأكيد علاقاته التعاونية بما فيه رفعته ، والحد من العلاقات المتنافرة ، وحصرها ما أمكن ، والسمو بإنسانية الإنسان والتدرج بها نحو العالمية ،

---

(١) النحل : ١ / ٧ .
(٢) الحجرات : ١٣ .
(٣) يونس : ١٩ .
(٤) الممتحنة : ٨
(٥) الأنفال : ٦١
(٦) آل عمران : ٦٤
(٧) الحجرات : ٩ .

يصل بنا إلى النقطة الأخيرة من عرضنا هذا ، ونعني بها مقارنة إنسان القرآن اجتماعياً ، بإنسان الأديان الأخرى(دون أن نناقض أحدهما بالآخر).
نقول مهما كانت موضوعيتنا فى إبراز أصالة القرآن على غيره فى التصوير للإنسان الاجتماعى فقد يتحفظ عليها بأنها وردت على لسان مسلم وبالتالى لا تخلو من النسبية . كذلك لو تركنا المعتنقين لدين آخر يقارنوا ، فهما كانت موضوعيتهم ، فهى لا تخلو من النسبية أيضاً ، لذلك سنترك لمحايد وضعى لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء عالم عملاق من مؤسسى السوسيولوجيا الحديثة نعني به «أوجست كونت» الذى نظر إلى كل الأديان بمنظار وضعى ، بعيدعن أى التزام روحى ،ليقارن، ولنقارن بالتالى على لسانه، يقول« كونت» فى صدد مقارنته وذلك فى مؤلفه الشهير« نسق السياسة الوضعية » (١) . أنه لن يشارك فى الحملة المفتعلة المسعورة ، ضد الإسلام فى الغرب ، دون معرفة بأعماق الحقيقة، وأنه لن ينساق كما انساق « ديديرو DIDEROT» فى حكمه على الإسلام إذ أن حكمه — على حد قول كونت — لايخلو من التعنت ، وفى مؤلفه « محاضرات فى الفلسفة الوضعيـــة » (٢) وهو لا يقل شهرة عن المؤلف السابق، يقول« كونت»: «إن تعاليم المسيح فاقت تعاليم موسى كما أن تعاليم الإسلام فاقت الجميع لما فيها من تمشى مع الطبيعة البشرية من الوجهة الواقعية والعملية»، وفى الجزء الثالث من نسق السياسة الوضعية ص ٤٧٠ وما يليها ، وفى الجزء الرابع من نفس المؤلف ص ١١٣ و ص ٥٠٥ إلى ص٢١٣؛ يؤكد كونت أولا أن القرآن بربطه للوحدانية بالواقع الاجتماعى ، ومحاولته تحديد الأبعاد عقلياً وعملياً وبصورة سريعة خلاقة ، وقوله بالحوار المباشر بين الخالق والمخلوق دون وسيط قد اختصر الطريق إلى الحالة الوضعية للإنسانية. ويعادل كونت غالباً «وضعية» « بعلمية » أى إلى الحالة العلمية للإنسانية ، وفى الجزء الثانى من نفس المؤلف ص ١٠٦ وكذلك فى مقدمة الجزء الثالث منه ، يرى كونت أن

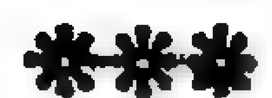
---

(١) Système de politique positive, vol. II, p. 505 et 55

(٢) Cours de Philosophie positive, vol. IV p. 071 et 55

اجتماعية الإنسان فى القرآن تتجه به إلى الاستقرار فى الجماعة ، وبالتالى تترك له إمكانية التفتح على قضاياه الحقيقية ، قضايا تطويره وتكيفه ، مع متطلبات مجتمعه . ومن ثم جعلته يتحمل مسئولياته الدنيوية بجدارة ، وفى نفس الجزء الثالث هذا من نسق السياسة الوضعية ص ٤٧٩ وما يليها و ص ٥٦٠ يقول كونت : فى الوقت الذى كان الغرب المسيحى مشغولا بقضايا لاهوتية عقيمة تخدر العقل ولا تنشط ، كان العالم الإسلامى يتفتح على العلم ، والمعرفة والفنون وبالتالى أصل اجتماعيته جنباً إلى جنب مع روحانيته ، إن التفوق الاجتماعى وأهميته فى التعاليم الإسلامية أهلت المسلم ليكون أكثر صلاحية من غيره اجتماعياً وأهلته للعالمية . حاول الإسلام أن يحد من سلبية القضايا التى يواجهها فكرياً ، وذلك بمناقشته الصريحة، وحينما نتكلم عن تقهقر الإسلام — المتحدث هنا دائما كونت — فإنما من الأولى أن نتحدث عن تقهقر المسلمين ، حين اشتغالهم بأمور ثانوية أبعدتهم عن تعميق تجاربهم الناجحة فى ماضى التاريخ ، وتكيفها مع طبيعة عصر اليوم عن طريق الاجتهاد العلمى فى واقع المجتمع ، ومعطياته الحالية ، بل هذا (أى الاجتهاد) ما ينصح به الإسلام . لقد سد الإسلام فراغاً كبيراً فى الميدان الاجتماعى بالنسبة لتطور الإنسانية — على حد تعبير كونت — وقدم الكثير ، وفاق ما قدمه ما قدمته بيزنطة ، وركزت العبقرية الإسلامية نشاطها فى تنظيم المجتمع وحكمه وإدارته ، وقالت بصدارة العلوم والفنون ، فأكدت بذلك أصالة الإنسان اجتماعياً . وفى الجزء الرابع من نسق السياسة الوضعية ص ٥٠٦ وما يليها يأسف «كونت» لأن روح القرآن الاجتماعية لم تفهم منذ البداية من غير المسلمين ، وكان الحذر المسبق منها ، وبالتالى لم يحدث تفاعل إيجابى بين الإسلام والمسيحية، وحل بدلا منه تفاعل سلبى يعبر عنه هذا التطاحن المرير عبر القرون ، والإسلام باجتماعيته لا يبتغيه ، إذ الصراع مع الأديان ليس من طبيعة الإسلام الاجتماعته، ويكرر «كونت» أنه كان من الخير للمسيحية ، والأجدى للإنسانية ، أن يترك الشرق للإسلام ، وتتكامل الأديان كل فى نطاق وجوده ، ويترك للأصلح فرصة أوسع للامتداد وإذا به الآخر ، وذلك فى سبيل المصلحة المشتركة ألا وهى إسعاد البشرية.

الإسلام بتقويمه الصحيح لمعطيات الإنسان يعتبر فى طليعة المتجاوبين مع الاتجاه الوضعى (أى العلمى) المحقق للعقيدة العالمية . لقد ساعدت الإسلام فتوحاته ، اجتماعياً ، بقدر ما ساعدت الآخرين عن طريق الاحتكاك به ، على التطلع والنهضة ـ أرض الإسلام ـ يقول كونت ـ هى خير أرض للاتجاه الوضعى . الإسلام أكمل فى زمن بسيط عبر حلول عملية معقولة مالم تستطع الأديان الأخرى أن تكمله خلال قرون طويلة ، ومن الجزء الثالث ص ٤٧٠ نسق السياسة الوضعية ، نختتم مقالتنا على لسان كونت نفسه وحرفياً : « إن العبقرية الإسلاميــة قلما تتعارض مع الحديث النهائى للدين الوضعى ، حيث إنها دائماً تتطلع متصعدة نحو الواقع ، عن طريق اتجاهها العلمى ، وعقيدتها المبسطة » (١) ، وهكذا يمكننا أن نضيف إلى قائمة إعجاز القرآن من الوجهة الروحية ، والبيانية ، والفلسفية ، دلائل إعجازه من الوجهة الاجتماعية ، والإنسانية » .



(١) والنص هو :
«Le genie Islamique doit même être moins contraire [...] à l'avènement final de la religion positive comme ayant toujours tendu davantage vers la réalité, d'après sa croyance plus simple et sa direction plus pratique...» système de politique positive vol. II p. 470.

الفصل السادس

في
البغاء الوحشي

- في هدف البحث وحدوده ·
- طرح قضية البغاء الوحشي ·
- الاطار الوصفي للبغاء الوحشي في الغرب كنموذج ·
- الاطار السببي للبغاء الوحشي ·
- خلاصـــة ·

هذه الدراسة ننشرها اليوم باللغة العربية أيضاً ، ذكرى (للاتحاد الدولى لإلغاء البغاء) وتذكرة بمجهوداته خلال أعوام طوال ، فى مكافحة البغاء .

بسم الله الرحمن الرحيم

فى البغاء الوحشى

تمهيـــد :

فى هدف البحث وحدوده

حينما انعقد المؤتمر الدولى للجريمة فى مقر هيئة الأمم المتحدة بجنيف خلال شهر سبتمبر سنة ١٩٧٥ طرحت قضايا هامة فى جدول أعمال المؤتمر للمناقشة ، ورغم أن تدخلات المؤتمرين ، كممثلين لدولهم ، كثيراً ما كانت تنصب — تحت توجيه سياسى مقنع — على جوانب مظهرية للجريمة وأخطارها ، أكثر من الاهتمام بالجوهر والأسباب الموضوعية ، فقد خضعت الجريمة بدورها ، أو إلى حد ما ، للمضاربات السياسية كما هى الحال فى العديد من المؤتمرات ذات التمثيل الحكومى ، غير أن الدراسات التى قدمت فى المؤتمر من بعض المختصين والخبراء لاتخلو من الفائدة فى وصفها للجريمة وحجمها ، مدعمة بإحصاءات بناءة ومفيدة للبحث العلمى فيما بعد ، كذلك ما قامت به وفود الدول العربية من مجهود يستحق بدوره الإشادة فى هذا المضمار .

والذى يعنينا من هذا ما أثير على هامش المؤتمر وبعد نهايته من بعض وسائل الإعلام « الماس ميديا » بمناسبة عقده فى جنيف حول ظاهرة بدأت تتفشى فى جسد المجتمعات الغربية المتقدمة صناعياً ، وتستحق العناية والاهتمام ، أو على الأقل لفت النظر إليها ، والتعريف بها فى إطار معالجة الانحرافات والجنوح ، وهى ظاهرة أطلق عليها « البغاء الوحشى » الذى أصبح الآن منتشراً وبائياً ، ليس فقط فى المدن الكبرى لهذه المجتمعات المتقدمة — وإنما بدأ يتسلل ويأخذ طريقه أيضاً إلى بعض المدن الكبرى فى المجتمعات الفتية .

وهذا ما دفعنا إلى وضع هذه الدراسة المركزة بهدف التعريف بهذه الظاهرة ، محاولين تحديد حجمها وأبعادها وعواملها المسببة ، مع استخلاص بعض الاستنتاجات فى النهاية كخاتمة .

فى المبحث الأول سوف نطرح قضية « البغاء الوحشى » على ضوء الأولويات الاقتصادية من مستوى الضرورة إلى مستوى الرفاهية ، على حساب غيبة ثالوث القيم الأخلاقية والمعنوية والروحية ، مع التعريف فى هذا المبحث بأدوات أو طرق التوثيق التى اعتمدنا عليها .

أما المبحث الثانى فسنحدد من خلاله الإطار الوصفى للظاهرة فى وضعيتها المعاصرة فى المدن الغربية كنموذج ، وأبعادها المختلفة فيها .

وفى المبحث الثالث والأخير نتصدى للعوامل المهيئة للسببية لنصل فى النهاية بهذه الدراسة إلى بعض الاستنتاجات الموضوعية كخاتمة لها :

وجدير بالإشارة منذ البداية ، أن هذه الدراسة لاتشكل أكثر من تمهيد اعتمد على ما نشر من الإمكانات التوثيقية التى سنعرف بها ونتعرف عليها فى المبحث الأول ، والمحددة والمحدودة للغاية فى استقصاء مثل هذه الظواهر المضمرة المقنعة المعقدة نسبياً والتى تصعب السيطرة عليها بالطرق التقليدية للبحث ، وبالتالى فالهدف المتوخى من دراستنا هذه لايتجاوز إطار التعريف المبدئى بهذه الظاهرة ، التى تعتبر بحق ظاهرة هذاالعصر.. عصر المجتمعات الاستهلاكية وحضارة الأشياء لاحضارة الإنسان — كما نكرر دائماً — فقد تحكم عامل الرفاهية بإشباع الغرائز والرخاء بفضل الأشياء ، على حساب العوامل الأخلاقية والمعنوية والروحية للإنسان .

***

المبحث الأول

طرح قضية البغاء الوحشى

على ضوء أولوية الرفاهية وغيبة القيم

(مع التعريف بوسائل البحث والتوفيق)

البغاء كظاهرة استيطانية مزمنة عرفتها كل المجتمعات البشرية — إلا ما ندر — وعبرت التاريخ ، كما عبرته ظواهر أخرى منحرفة مثل : الجريمة ، والتسول الاحترافى ، والكذب ، والنفاق ، والغش ، والميسر .. مرة تتقلص وأخرى تنتشر ، ولعب العامل الاقتصادى دوراً هاماً فى سببيتها ، خصوصاً على مستوى الضرورة والفاقة ، إلى جانب عوامل أخرى نفسية ، وتربوية ، وحربية . وحتى دينية فى بعض المجتمعات القديمة كما هو معروف .!

ولقد خضعت لدراسات واسعة ومتخصصة ، متنوعة ومتعددة ، خصوصاً فى العصر الحديث والمعاصر ، بل شهدت الأعوام الأخيرة تكثيفاً وتكثفاً فى هذه الدراسات ، وباتت تشغل حيزاً لايستهان به من نشاط بعض العلوم الإنسانية وحتى التجريبية البحتة على حد سواء من علم الاجتماع ، والقانون الجنائى وعلم الإجرام وعلم النفس وغيرها من العلوم الاجتماعية ، حتى علم الطب العصبى والنفسى ، من مستوى الوقاية إلى مستوى الردع والعلاج .

ولم يعد البغاء بالتالى مجرد منكر يعالج فقط بالمواعظ والنصائح والتحذير الأخلاقى ، والمعنوى ، والروحى ، وإنما أضحى ظاهرة تدرس موضوعياً كبقية الظواهر الاجتماعية ، من حيث نشأتها وتطورها عبر

العصور المختلفة ، كظاهرة من أقدم الظواهر التى عرفها التاريخ . على سبيل المثال – لا الحصر – فى المجتمع الفرعونى والبابلى ، والفينيقى والإغريقى ، بل خضعت هذه الظاهرة فى منطلقاتها عبر بعض المراحل لتكون شكلا من أشكال التقرب إلى الإله ، وتزيت فى بعض مناحيها بزى المتاجرة من قبل الآباء، وفى مناح تاريخية أخرى تنسقت فى نوع من التنظيم لدى الإغريق وغيرهم ، وكان هناك بغاء المحظيات «دى مليه / لايس» ، كما أشار ديموستينس Demosthenes ق ، م » من أنه كانت لهم أنيسات للسرور الروحى ، ومحظيات للذة الجسدية ، ونساء شريفات زوجات لإنجاب الأطفال ورعاية المنزل ..

ومع العصر الحديث خضعت ظاهرة البغاء للبحث العلمى بعد أن كانت خاضعة من قبل لمقاييس تشريعية بهدف الردع والعقاب ، والزجر المعنوى والخلقى والروحى ، واتسعت الاجتهادات فيها ، من وضع للتعاريف ، وتحديد المفاهيم . والخصائص وتصنيف للأنواع ، وشرح للعوامل ، والأسباب ، لاكتشاف آلياتها موضوعياً . واستخلاص نتائجها.

ودون أن نخوض تفصيلا فى أبعاد تعريف « البغاء » يمكن أن نصوره بأنه « قبول لمزاولة علاقة جنسية معينة فى مقابل يعطى أو يطلب »(١) وهناك « القوادة » أى التوسط فيه من طرف آخر غير الباغية بهدف التكسب منه (٢) .

وأما بالنسبة للعلوم التى تصدت لدراسة هذه الظاهرة . فنها – كما ذكرنا – علم الإجرام وهو يحاول شرح أسبابها ، وتحديد معالمها فى إطار الجنوح والانحراف ، بينما سوسيولوجية الإجرام تنبرى لتربط هذه

---

(١) Prostitution : Fait de consentir habituellement à des rapports sexuels déterminés, seulement par la rémunération offerte ou demandée...

(٢) Le Proxénétisme : Fait de profiter lucrativement de la Prostitution d'autrui : ...

الأسباب والعوامل المهيئة لها بإطار أشمل فى الشروح ، وهو بيئة المجتمع وبنيانه وتناقضاته ، والسيكولوجيا بدورها تتصدى فى بعض مناحيها لهذه الظاهرة لتتعرف على آثارها بالنسبة للشخصية ومدى ارتباطها بالنزعات، والميول ، وانعكاساتها سواء كتفجير كبتى أو إسقاط للمعاناة .. و « انثربولوجية » الإجرام من خلال المدرسة الإيطالية اجتهدت فى هذه الظاهرة فى إطار تهميشها للجريمة ، والطب النفسى والعصبى حاول بدوره أن يسهم ليتعرف على مدى علاقة الاضطرابات والأمراض الجنسية والنفسية العصبية بها ..

وهدف هذه العلوم مهما تنوعت مشاربها وتخصصاتها ، إلى جانب التشريع الذى اهتم بهذه الظاهرة على مستوى معايير العقاب قصد الوقاية أو الزجر والردع ، هو معرفة مدى تفاعل العوامل وتعددها فى التهيؤ لها أو تنشيطها ، أو حصرها وحصارها ، وما يترتب عليها من نتائج وآثار اجتماعية ، واقتصادية ، وحتى سياسية، وأسرية ونفسية وجسدية..

ومن هذا المنطلق نضع هذه الدراسة التى اعتمدنا فى توثيقنا لها على ماتيسر لنا الحصول عليه من أبحاث حديثة — سنشير إليها فى الصفحات التالية — تمت فى هذا المضمار ، إلى جانب ماتوصلنا إليه منذ سنوات من منشورات خاصة بهذا الموضوع يقوم بتوزيعها دورياً « الاتحاد الدولى لإلغاء البغاء » من مقره بمدينة جنيف(١) .. وأضفنا إلى ذلك بعض الاستطلاعات من واقع الملفات لدى بعض المحامين المهتمين بهذا الموضوع ، وبعض المسئولين عن مقاومة هذه الظاهرة لحماية الآداب العامة وفى المجلات والصحف المتخصصة فى الاعلانات المقنعة — وفى دور العدالة كقضايا سببها الخيانة الزوجية — وذلك لمجرد الاستنارة بها فى تحديد النسب المئوية لحجم وأبعاد وأسباب هذه الظاهرة فى المدن الغربية .

---

(١) Fédération blitionniste internationale ; ses congrès et ses publications à Genève...

هذا إلى جانب استطلاعات بالمقابلة لدى المترددين على بعض الأماكن التى يشم منها رائحة البغاء ، وكمثال من أمثلة أخرى بعض مراكز التدليك المشبوهة فى بعض المدن الغربية ، وإن كانت هناك مراكز أخرى لا غبار عليها ، وكذا بعض النوادى الخاصة وإن تنوعت اللافتات والمسميات ... وإلى غير ذلك ... أما الاستطلاع على مزاولات هذا النوع من البغاء هو « البغاء الوحشى » فكانت الإمكانات محدودة للغاية لأن طابع هذا البغاء الالتقاطى هو التقنع والظرفية والإضمار ...

ومع هذا فتعدد طرق البحث هذه ، وتقنياته المختلفة بما يتمشى وواقع الظاهرة وتنوعها ومصادر توثيقها ، أعطى فى النهاية حصيلة من المعلومات التى شكلت ، ولو نسبياً ، بعد غربلتها وتصفيتها — إلى جانب ملاحظاتنا الموضوعية عما يجرى كانعكاسات فى مدن المجتمعات الفتية — أرضية لطرح هذه القضية الهامة عبر هذه الدراسة ، كرؤية مبدئية تفتح الطريق أمام دراسات أخرى أكثر تفصيلا ووفاء بواقع البغاء فى لونه الحديث هذا ... وصورته المعاصرة ، بعد أن باتت أهمية دراسته غنية عن كل تعليل .

فيكفى القاء نظرة سريعة على الأبحاث التى نشرت حولها ، والتى اعتمدنا — كما ذكرنا سلفاً — عليها من بين ما اعتمدنا عليه فى وضع هذه الدراسة ليتضح لنا ذلك ، نذكر على سبيل المثال لا الحصر : داربجران وآخرين : البغاء والرأسمالية . داليس : شيكولوجية البغاء . سيكو : البغاء فى العالم . بلوت : تاريخ البغاء . ساكوت : البغاء ، وله أيضاً : البغاء ماذا يمكن عمله ، قضية اليوم والغد . لموال : دراسة عن بغاء القصر . فيدانزا : دراسة عن اللواطين الباغين المقنعين . سيرفى وآخرين : تاريخ وملف البغاء . دومينك : ومانسشينى : من أجل فتح دور البغاء ، أو ضد فتح دور البغاء . بارليه : رق الجنس . برو : الأماكن المشبوهة فى لندن . باران ديشاتليه : البغاء فى مدينة باريس . مانسشينى : بغاء وقوادة . فيليبون : رق العصر . فان هاشت : البغاية

وضع وصورة . داليارك (وله عدة دراسات منها) : ملف البغاء ، الوجه الجديد للبغاء ، الثورة ضد الوضع الذكورى .. وأيضاً مزيكيه : الحب العملى أو الجنس المتوحش ، وفيفيان عن : حل لقضية البغاء .. ودراسات أخرى لايتسع المقام لذكرها . كذلك تمت أبحاث علمية باللغة العربية فى شكل دراسات جامعية وأطروحات ، نذكر منها على سبيل المثال ــ أطروحة الدكتوراة القيمة ، لنيازى حتاتة عن : «جرائم البغاء» نشرت بالقاهرة . ورسالة دبلوم الدراسات العليا لخديجة المسدالى بنانى التى قدمت بالمغرب ، إلى جانب كتب أو مقالات تعرضت لأطرها القانونى وكيفية العلاج أو الردع (١) ...

---

(١) لمن يريد الاطلاع على هذه المراجع والمزيد من التفاصيل والمعلومات عن مكان نشرها ، وزمانها ... الخ ، هى على التوالى حسب تاريخ ظهورها :

DARRIGRAND (P.) et autres, sexualité et Capitalisme, Paris, Crapouillot, 1961—) ELLIS (H.), Studies in the Psychology of sex, et trad. en français par Arnold, Paris, 1964—) SICOT (M.), la prostitution dans le monde, Paris Hachette 1964—) BULLOUGH (V.) the History of prostitution. N. Y. University Books, 1964—) SACOTTE (M.), la prostitution, Paris, Buchet — Chastel 1965 et un autre travail, la prostitution que peut-on faire, problème d'aujourd'hui et de demain, Paris, Buchet-Chastel 1971—) LE MOAL (P.), Etude sur la prostitution des mineurs, E.S.F. 1965—) FIDANZA (D.), Etude sur les prostitués homosexuels travestis. Paris, thèse med. 1966—) SERVAIS (J.J.) et LAUREND (J.P.), Histoire et dossier de la prostitution, Paris, planète, 1967—) DOMINIQUE (P.) et MANCINI (J.G.), pour la réouverture des Maisons closes contre la réouverture des Maisons closes, Paris 1967—) BARLAY (S.), sex slavery. trad. en français l'esclavage sexuel, Paris 1969—) BRAU (J.L.), les mauvais lieux de Londres, Paris Balland, 1969—) PARENT-DUCHATELET (D. Alex. J.B.) de la prostitution dans la ville de Paris, Paris, Poirat — Duval, 1971—) MANCINI (J.G.) Prostitution et proxémetisme, Paris, P.U.F. 1972—) PHILIPPON (O.) l'esclavage du siècle, Tequi, 1972—) VAN HAECHT (A.) la prostitué, Statut et image, Bruxelles éd. de l'Université 1973—) DALLAYRAC (D.) Dossier prostitution, Paris, éd. «J'ai lu», 1973 et autres travaux : le nouveau

ولاشك أن هذا الاهتمام المتزايد بدراسة ظاهرة البغاء جاء نتيجة لتشعبها وحيويتها ، وتقنع انتشارها المستمر فى المجتمعات المعاصرة التى طبعت بالاستهلاك فى كل شيء، بما فى ذلك القيم والمبادىء ، وأصبحت الرفاهية مع البحث عن الرخاء والترف تجب ماعداها ، إشباع البطن وما حولها على حساب إفقار الضمير .

ومن ثم تزيت هذه الظاهرة بزى العصر ، وتحصنت لتأخذ شكلا وبائياً فى صوره تتفق ومعطياته بسرعته : وتنكره ، وتقنعه ، ونفعيته صورة بغاء وحشى ، وإن كان من حيث المبدأ يلتقى مع البغاء المتعارف عليه عبر العصور ، وبالتالى يعتبر استمراراً معصرناً وتحديثياً له ، بمعنى « قبول مزاولة علاقة جنسية معينة فى مقابل يعطى عادة أو يطلب » ولكن نعت التوحش «Sauvage» جاءه لأنه بلا مقدمات وبلا عنوان مرتبط بمكان المزاولة ودورها ، وبلا احتراف مميز ، فهو التقاطى مقنع ، قد يغطى أكثر من حاجة استهلاكية ، ويحقق أكثر من رغبة وميل ، أو إسقاط بثأر من موقف عاطفى ، أو إشباع باقتناء الكماليات والرغبة واللذة معاً ، وبذلك فهو قريب الشبه « ببغاء الحظوة » الذى مارسه القدماء ، ومرتبط فى نفس الوقت بتطلعات الرفاهية فى المجتمعات الاستهلاكية ، مرتبط بشراء ثلاجة ، أو عربة ، أو اقتناء أثاث ، أو لباس ، أو رحلة ، أو هدية ...

وهو لاتزاوله فئات محددة على مستوى الفاقة والضرورة ، وإنما ارتبط بموجة التحلل الجنسى مع الملل العاطفى ، وضعف مشاعر التسامى ، والرغبة فى التغيير والتبديل ، بعد أن عم التغيير فى كل شيء بالمجتمعات

=
visage de la prostitution — la révolte contre l'ordre mâle, Paris, Robert Laffont...—) Aussi faut-il enfin citer HENRIQUEZ (F.) Love in action. Trad. de l'Ang par Soulie sous titre : La sexualité sauvage, Paris, éd. planète. s.d. etc... VIVIEN (RA). Solution au problème de la prostitution édité à LILLE... etc.

الصناعية : تغيير أطرزة اللباس كل عام ، وتغيير العربات ، وتغيير طراز قص الشعر ...

إنه تيار التغيير والتغيير السريع ، حتى فى شكل المدن وأبنيتها . العلاقات والقيم والأفكار والمبادىء ، كل شىء يباع ويشترى ، فى سوق الاستهلاك ...

ولقد نادى البعض بتهوية العلاقات الجنسية ، وغض النظر نسبياً فى انتظار وصول هذه الظواهر إلى نقطة الإشباع ، والردة إلى الاعتدال والتعادل ، للتخفيف من حدة التقنع والإضمار والانتشار الوبائى ، كما حدث فى بعض المجتمعات الأوروبية بالنسبة لأفلام « البورنو » الجنسية ، والسكوت الضمنى عن الفضيلة فى بعض التشريعات الخاصة بتحديد المواقف من الشذوذ الجنسى ، ومدى التجاوز عنه حينما لاتترتب عليه مخالفات ، أو جنح ، أو جرائم تحاسب عليها شكلية القانون ، بمعنى محاوله التميز فى الأخلاقيات بين ماهو مبادىء سامية ، أو معنويات تقليدية ، وبين ماهو سلوك طبائعى .

ولعل اتخاذ هذا الطريق العملى مؤقتاً للتعامل مع هذه الظاهرة ، فى محاولة للحصر والحصار فى المجتمعات الغربية ، مرده عدم جدوى وسائل الردع الأخرى التى كثيراً ما تؤدى ردود فعلهـا إلى عكس النتائج المنتظرة منها ، وتؤول الظاهرة فى النهاية إلى مزيد من التقنع والحصانة والانتشار .

« فالبغاء الوحشى » بالتالى كصورة معاصرة للبغاء تحت شعـار الرفاهية لاتحت عامل الضرورة يمارس فى شكل متشعب ، ومضمر ، وموسمى ، متعدد الأهداف إلى جانب هدفه الأساسى ، وهو الرفاهية فى الاقتناء الاستهلاكى — كما أسلفنا الذكر — وعلى مستويات متنوعة من الفئات الاجتماعية.. هذا البغاء يفرض على الباحثين المختصين والمتخصصين التعامل معه فى ظرفية معقدة للغاية ، وشرطية تستلزم الإحاطة بكل أنواع الملاحظة الممكنة ، والتوثيق بمختلف وسائل الاقتراب ، واستغلال هذه الملاحظات والوسائل فى إعطاء فكرة عن الحجم والأبعاد ، فى إطار

وصفي يجسد ظاهرة « البغاء الوحشى » ثم تحديد عواملها بين أساسي وثانوى ، واستخلاص بعض النتائج التى يمكن أن تسهم – مهما كانت محدودة – فى التعرف عليها وصفاً وتعليلا، وطرح بعض الحلول الممكنة علمياً ، حتى ولو كانت فقط على مستوى الحصر . والحصار لا الإذابة والاستئصال .

فمن الخطأ الاعتقاد ، أمام ظاهرة معقدة ، ومضمرة ، ومقنعة ، كهذه تنخر فى أجساد المجتمعات الغربية وتذيب قيمها ومعنوياتها ، بل وتدمر أسسها ، وتتغذى فى كل يوم بشهوة الاستهلاك وشهيتها المفتوحة بلا حدود... من الخطأ أن تواجه فقط بالنصح ، وضرب الأمثلة ، والمواعظ ، أو بالردع والعقاب الجزائى الذى لا يزيد الظاهرة إلا تحصناً ومناعة واحتيالا على وسائله ، وإنما تواجه أيضاً بمعطيات العلوم المتخصصة ومناهجها .

ومن ثم يحق لنا أن نطرح هذا التساؤل بمنطوق القرن العشرين وظرفيته وهو : « أيهما أجدى للمجتمع وأنفع للإنسانية ، وأوفى لتعاليم السماء ، أهذا الذى يقف فى معبده يكيل الوعيد لنفوس ضائعة أمارة ، وآذان غير صاغية ، وأجساد تعودت الاستهلاك واعتادته ، أم هذا الباحث الذى ينزل إلى ميدانه يتلمس الواقع ويلمسه فى كل مأساويته وأبعاده مستمعاً إليه مستجوباً ومتفهما لشرطياته ، محاولا حصر حجم الظاهرة ، وتحديد عواملها ، وإعطاء حلول موضوعية على ضوء ذلك » ؟

وهذه الحلول وإن كانت نسبية إلا أنها تتم فى حضور الواقع لا فى غيبته .. ومن هنا فسوف نفرد المبحث التالى من هذه الدراسة – وهو المبحث الثانى – لإعطاء نظرة استطلاعية عن الإطار الموضوعى لظاهرة « البغاء الوحشى » ، وأبعادها ، متخذين من بعض المدن الغربية نموذجاً ومكتفين بجداول للنسب المئوية لا أكثر ولا أقل ، وفى حدود ما توفر لنا من إمكانات التوثيق ، وذلك تسهيلا لتتبع نمو هذه الظاهرة ، وتبسيطاً لمعرفة حجمها فى شكل تقريبي ، أملته طرق البحث ووسائله المحدودة للغاية ، فى مثل هذه الظواهر المقنعة – كما أشرنا سلفاً – والصعبة فى الاقتراب والاستحواذ .

***

المبحث الثانى

الإطار الوصفى للبغاء الوحشى
فى الغرب كنموذج
(نظرة استطلاعية فى الحجم والأبعاد)
من واقع التوثيق فى مدنه وأصدائه فى المدن الفتية

تمهيد :

لإعطاء نظرة وصفية كنموذج عن هذه الظاهرة ، كما تعيشها المدن الغربية فى المجتمعات المتقدمة صناعياً ، سنكتفى بتعرف تقريبى عليها حجما وأبعاداً ، من خلال الحالة المدنية للمزاولات — بقدر ما سمحت إمكانات التوثيق وحدوده —: السن ، والمستوى الثقافى ، والمهنة ،وبداية المزاولة، ومكانها وزمانها ، وبنسب مئوية مجدولة لا أكثر ولا أقل . فليس هدفنا من وصفها تحرى جزئياتها ودقائقها ، فهذا موضوع يجد مكاناً له فى إطار تحقيق اجتماعى موسع شامل ، ويتجاوز بالتالى هذا الاستطلاع الذى اتخذ ،كغاية له ، التعرف المبدئى على هذه الظاهرة .

وفى تحليلنا لجداول النسب المئوية سوف نحاول على ضوء ما نلمسه من انطباعات طرح الأصداء والانعكاسات فى مدن المجتمعات الفتية ، خصوصاً الكبرى منها والحضر ، وذلك بصفة عامة استكمالا للفائدة . وسنبدأ بالحالة المدنية .

• الحالة المدنية :

فى تحديد الحالة المدنية انطلاقاً من واقع التوثيق على الفئات الأساسية

الست وهى : عذراء ، مخطوبة ، متزوجة ، مفترقة عن زوجها ، مطلقة ، أرملة ، حسب الجدول التالى المحدد للنسب المئوية :

(جدول رقم ١)

الحالة	النسبة المئوية
عذراء	٣ ٪
مخطوبة	٦ ٪
متزوجة	١٠ ٪
مفترقة عن زوجها	١٦ ٪
مطلقة	٢٥ ٪
أرملة	١٠ ٪
غير محدد	٣٠ ٪

من واقع هذا الجدول يبدو لنا أن أقل نسبة لدى العذراوات ، وتليها المخطوبات ، بينما أعلى نسبة – إلى جانب الحالات التى لم تحدد هويتها بسبب التنكر والتقنع ، كصفات أساسية لهذا البغاء الوحشى – نجد المطلقات يتصدرن ، ثم المفترقات عن أزواجهن ، بينما نسبة المزاولات من المتزوجات تأتى وسيطة إذا ما قورنت بالنسب الأخرى . وكذا الأرامل .

ولقد لاحظنا أن المطلقات أغلبهن لديهن أطفال ، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل عن الأثر الواضح للبنيات الأسرية ، والانفصام الأسرى ، فى انتشار هذا النوع من البغاء. ومن حيث أصداء هذه الظاهرة على مستوى الحالات المدنية بالنسبة للمزاولات لها ، فى المجتمعات الفتية النامية ، فالمطلقات دائماً يتصدرن وبشكل متزايد ، وكذا المفترقات عن أزواجهن ، فالنسبة فى الفئتين معاً كما هى الحال فى المجتمعات المتقدمة الصناعية تتجاوز ٤٠ ٪ ومن ثم فالطلاق والافتراق يتصدران كأرضية للبغاء الوحشى .

● السن :

بالنسبة لسن المزاولات قسمنا ، على ضوء التوثيق الذى لدينا ، الفئات إلى مستويات ثلاثة : ما دون العشرين ، ما بين العشرين والثلاثين ، ما فوق ذلك ، حسب الجدول التالى المحدد للنسب المئوية :

(جدول رقم ٢)

الحالة	النسبة المئوية
ما دون العشرين	١٥ ٪
بين العشرين والثلاثين	٣٥ ٪
ما فوق ذلك	٤٠ ٪
غير محدد	١٠ ٪

وعلى عكس الحالة المدنية فإن النسب غير المحددة بوضوح لا تتجاوز ١٠ ٪ وذلك لأن المظهر فى حد ذاته يساعد فى التعرف على مستوى العمر ، إلى جانب الحالة المدنية نفسها . ولقد جاءت نسبة ما فوق الثلاثين لتحدد لنا أعلى مستوى فى مزاولة البغاء الوحشى ، تليها نسبة ما بين العشرين والثلاثين ، وهذا بدوره يؤكد سلبية التجربة فى الزواج ، أو الافتراق ، أو الخطوبة بعد ممارسة الحياة المشتركة وتذوقها مع الرجل ، وإن كانت نسبة ما دون العشرين تصل إلى ١٥ ٪ فرد ذلك فى مدن المجتمعات الصناعية المتقدمة — تجمعات متعاطى المخدرات — لاحتياج المزاولة إلى الكسب لتغطية حاجياتها ، وفى بعض الأحيان حاجيات الشريك فى الحياة الجماعية ، بينما بالنسبة لما فوق العشرين تتصدر التطلعات الاستهلاكية ، ومعطيات الرفاهية المتنوعة .

ومن حيث الأصداء فى المجتمعات الفتية على مستوى السن فنرى عادة

فترة ما بين العشرين والثلاثين هى المتصدرة نتيجة للوفول فى سن مبكرة، اللهم إلا ما ندر ... ولا شك فى أن وجود توثيق دقيق بالنسبة للمجتمعات الفتية ، وإن كان يصعب تحقيقه الآن ، سوف يساعد على تحرى النسب فى صورة أكمل وأوضح .

• الثقافة :

وفيما يخص المستويات الثقافية فقد أجملناها ، من واقع التوثيق، تبسيطاً وتسهيلا للحصر ، فى مستويات أربعة : أمية ؛ ثقافة عامة، ثقافة مدرسية متوسطة ، جامعية ؛ حسب الجدول التالى المحدد للنسب المئوية :

(جدول رقم ٣)

الحالة	النسبة المئوية
أمية	٠ ٪
ثقافة عامة	٥٨ ٪
ثقافة مدرسية متوسطة	١٥ ٪
جامعية	١ ٪
غير محدد	١٦ ٪

من واقع هذا الجدول المبسط للتوثيق نجد أن نسبة الأمية لدى المزاولات فى المجتمعات المتقدمة الصناعية منعدمة ، لغيبة الأمية أساساً ، بينما تصل النسب إلى أعلى مستوى لها لدى المزاولات ممن لهن ثقافة عامة فقط ، وهذا تحدده المهن أيضاً (راجع جدول رقم ٤ التالى) . أما من يتمتعن بثقافة مدرسية متوسطة فهى نسبية ، وأيضاً الحالات غير المحددة ، إذا ما قيست بمن لهن ثقافة عامة فقط .

ولدى الجامعيات تكاد المزاولة تندر ، ومرد ذلك — على ضوء ما أملته معطيات التوثيق — أن تناول المخدرات وإن كان لدى القاصرات

يدفعهن ، بالضرورة تحت تأثيره ، إلى البغاء الوحشى ، فعند الجامعيات ، فى المجتمعات المتقدمة صناعياً ، يتكامل مع نوع من البغاء يمكن أن نطلق عليه « البغاء الحذنى » فى مجتمعات متعاطى المخدرات .

وهذا بدوره يتطلب دراسة على حدة ، وكذا الأصداء فى المجتمعات الفتية بالنسبة لمستوى الثقافة حيث الأمية أو الفشل التعليمى كثيراً مايشكلان عوامل تهيىء للمزاولة بنسب مرتفعة ، ومن ثم فباستطلاع أوسع حين توفره سوف يساعد موضوعياً على إعطاء نتائج أكثر دقة وتحديداً فى هذا المضمار .

• المهنة :

لقد ساعد تعدد طرق التوثيق غير المباشر والمباشر وتنوعه ، على استيعاب أكبر قدر ممكن من التقصى لمهن المزاولات ، مما سهل لنا التعرف على النسب المئوية لهذه المهن ، حيث لعب المستوى الثقافى – السالف الذكر – دوراً فى التأهيل المهنى وتصنيفه – حسب الجدول التالى المحدد للنسب المئوية :

(جدول رقم ٤)

الحالة	النسبة المئوية
عاملات فى المصانع	٧ ٪
ممرضات	٥ ٪
بائعات وكاتبات	٢٠ ٪
عارضات أزياء ، حلاقات مدلكات	٣٦ ٪
جامعيات	٠ ٪
غير محدد	٢٢ ٪

يؤكد (جدول المهن) – بلا شك – ما جاء من نسب فى جدول الثقافة

السابق (رقم ٣) حيث نلاحظ فى المجتمعات الصناعية المتقدمة أن المهن التى لا تتطلب أكثر من ثقافة عامة تتصدر فى المزاولة ، خصوصاً المهن التى بطبيعتها تولد احتكاكاً مباشراً بالآخرين ، فى جو ملائم يسهم فى تهيئة العلاقات ، وهكذا شكلت البائعات والكاتبات والسكرتيرات ، وعارضات الأزياء ، والحلاقات والمدلكات ، ومن على شاكلتهن الأرضية المشتركة التى تصل مجتمعة إلى نسبة ٥٦ ٪ .

على أنه مما يلفت النظر ضعف هذه النسبة لدى العاملات ممن يزاولن عملهن فى المصانع والعمل الشاق بصفة عامة ، حيث واقع الحياة الكادحة والمعاناة لا يؤهل بدوره لبغاء الرخاء والرفاهية (البغاء الوحشى) بقدر ما يؤهل لبغاء الحاجة وهو البغاء المتعارف عليه (العادى) لسد ضروريات الحياة ... وكذلك الحال بالنسبة للممرضات غير المحصنات فقط ممن سقطن فى مزالق الرذيلة وبراثنها .

أما الجامعيات فى المدن الصناعية فنسبتهن تكاد تكون منعدمة ، أما المهن المتداخلة وغير المعروفة ، أو بلا مهنة أساساً ، وقد رمزنا إليها « بغير محدد » فجسدت نسبية عالية إلى حد ما ٢٢ ٪ ومرد هذا ، فى تصورنا — كما أشرنا من قبل — إلى طبيعة التستر والتقنع فى البغاء الوحشى وإضماره . . . وهكذا يتضح لنا أن الدخل المحدود ، مع التطلع الذى لا يتمشى مع الإمكانات ، يمثل ميداناً خصباً لهذه الظاهرة ، خصوصاً حين توفر الظروف والفرص لتغطية التطلع إلى الرفاهية ، بأقل قدر ممكن من الجهد ، وأكبر قدر من الإغراء ، مع غيبة الوازع المحدد لهذا التطلع اللاخلقى .

ولعل أصداء ظاهرة « البغاء الوحشى » بالنسبة للمجتمعات الفتية فيما يعنى الانتساب المهنى ، لا تختلف كثيراً فى التصنيف والارتباط بالدخل المحدود الذى لا يفى بالتطلعات ، هذا بالإضافة إلى أن مستوى

الثقافه كثيراً ما يشكل — حين الفشل التعليمى أو الجامعى أو العاطفى أو الأسرى فى المجتمعات الفتية — أرضية تدعم بدورها الدوافع والحوافز إلى الممارسة أكثر من تدعيمها للموانع والحواجز ، كما هى الحال فى المجتمعات الصناعية المتقدمة مدنها . ولا جدال فى أن تحقيقنا اجتماعياً موسعاً سوف يجيب على هذه التساؤلات موضوعياً .

• بداية المزاولة :

هل حدثت البداية عن طريق الإرغام ، أم تمت عن طريق الصدفة ، أم جاءت نتيجة لفضول وميل وتطلع مادى وتشجيع ؟

الجدول التالى يبين لنا نسب ذلك بوضوح :

(جدول رقم ٥)

الحالة	النسبة المئوية
مرغمة	٥ ٪
منزلقة بالصدفة	١٨ ٪
فضول مع تطلع مادى وتشجيع	٥١ ٪
غير محدد	٢٦ ٪

يتضح من هذا الجدول المجسد لواقع العوثيق الذى تمكنا من استقصائه أن بداية المزاولة فى أغلب الحالات جاءت نتيجة لفضول أو تشجيع طرف آخر مزاول أو وسيط ، مع ميل ضمنى وتطلع مادى لا يتمشى مع الإمكانات المتوفرة لدى المزاولة ، أما الإرغام والقهر فلا تتجاوز نسبته ٥ ٪ وحتى الانزلاق بالصدفة فهو بدوره نسبى إذا ما قورن بالفضول والتشجيع ، هذا إلى جانب النسب المبينة للحالات غير المحددة لبداية المزاولة وعدم الرغبة فى التصريح بذلك أو صعوبة تقصيه .

وكأصداء فى المجتمعات الفتية فإن قضية الفضول مع التشجيع والتطلع

والتسهيل بفضل الوسيط لا يمكن إنكار تصدرها . فطبيعة « البغاء الوحشي » على ذلك ؛ تختلف عن البغاء العادى الذى كثيراً ما يلعب الإرغام ، وقهر الظروف ، والحاجة ، والضرورة دوراً هاماً فى البداية ، فهو انعكاس للضرورة . بينما الوحشي انعكاس للتطلع والرفاهية على كل المستويات جسدياً واقتصادياً .

• طبيعة المزاولة زمانياً :

نظراً لأن هذا النوع من البغاء يعتمد على الالتقاط الخاطف ، وعدم الاستمرار الاحترافى ؛ نتيجة لطابعه المقنع ، فقد حاولنا ما أمكن تحديد الإطار الزمنى على حسب الفترات اليومية والشهرية أو حسب الظروف ، فاتضح لنا من الحالات المستطلعة ، بمختلف وسائل وطرق التوثيق ، مايلى فى الجدول التالى :

(جدول رقم ٦)

الحالة		النسبة المئوية
الفترات اليومية	صباحية	٥ ٪
	مسائية	٤٥ ٪
	ليلية	٣ ٪
الفترات الشهرية	بداية الشهر	١٠ ٪
	منتصفه	٤٠ /
	نهايته	٥٠ ٪
حسب الظروف		٢٢ ٪
غير محدد		١٥ ٪

من واقع هذا الجدول المعتمد على استنتاجات التوثيق ، كبقية الجداول ، لتوضيح النسب المئوية ، نجد أنه من حيث الفترات اليومية يتصدر النهار على الليل بعكس البغاء العادى ، وذلك تمشياً مع طبيعة هذا النوع من البغاء

الذى يلتحم بالحياة اليومية ونشاطها ، ويتقنع من خلالها ، خصوصاً فى الفترات المسائية بعد الظهر بالذات ، حيث إمكانيات الرقابة الأسرية والضبط الاجتماعى أقل ، تيسراً لالتباسها فى العمل اليومى الذى بلغت نسبة المزاولة فيه إلى ٤٥ فى المائة إلى جانب الفترات الصباحية أيضاً .

أما المزاولة الليلية فتكاد لا تذكر (٣ فى المائة) ،ومن حيث المزاولة على مستوى الشهر ترتفع نسبة المزاولة انطلاقاً من منتصفه ، فنى بدايته لم تتجاوز النسبة ١٠ فى المائة،ولعل مرد ذلك إلى أن الدخل بميزانيته فى أوائل الشهر يكون قادراً على إشباع وتحقيق الرغبات الشرائية نسبياً ، واستهلاك الدخل الشهرى بسرعة يتطلب التعويض خصوصاً أمام إغراء متطلبات الرخاء ، والحالات التى تزاول حسب الظروف وغير المحددة بدورها ، تشكل نسبة عالية(٣٧ فى المائة) هذا يؤكد أيضاً الطبيعة التنكرية لهذا النوع من البغاء الذى يفضل الظلال والاستتار والاضمار ويتحاشى بالتالى المجاهرة والإفصاح والعلانية .

والإطار الزمنى كبداية المزاولة لا يختلفان كثيراً بالنسبة للأصداء فى المجتمعات الفتية . مع المغالاة فى التنكر والاستتار والتقنع . نظراً لقوة الضبط الاجتماعى والرقابة الأسرية فى هذه المجتمعات . مما يجعل أى استطلاع ميدانى محدوداً فى فاعليته وعطائه فى الوقت الحاضر ، وبالتالى لا يتجاوز الافتراض إطار الأصداء والانطباعات المتصورة .

- طبيعة المزاولة مكانياً :

طبيعة المزاولة مكانياً يمكن تحديدها ثلاثياً : إما مكان معين مستتر ، أو لدى طرف ثالث وسيط ، أو فى أى مكان : والجدول التالى يقرب لنا التصور المكانى كما أملاه التوثيق من خلال النسب المئوية:

(جدول رقم ٧)

الحالة		النسبة المئوية
مكان معين مستتر	لدى المزاول	١٨ ٪
	لدى المزاولة	١ ٪
	طرف ثالث وسيط	٢٥ ٪
أى مكان		٣٠ ٪
غير محدد		٢٦ ٪

كما يتضح من هذا الجدول ، فإن الطابع الالتقاطى لهذا النوع من البغاء جعل مكان مزاولته يتميز بالفورية والإخفاء والسهولة عن أى مكان آخر . وتشكل الأماكن المستترة فى وسط المدينة ، سواء أكان يقتنها المزاول أو الوسيط أو فى أى مكان متيسر فورياً ، ما يصل إلى ٧٣ ٪ . ولعل مرد ذلك إلى الحيطة والاحتراس والمغالاة فى الكتمان ، وبالنسبة للمجتمعات الفتية فإن الضبط الاجتماعى والرقابة الأسرية يشكلان عائقاً فى تيسر المكان المناسب ، ومن ثم فالأماكن المهيئة كثيراً ما تتستر بدورها تحت مسميات متنوعة .

وبالتالى فإن النسب فى جملتها لا تتغير كثيراً فيما يعنى الأصداء فى مدن المجتمعات الفتية ،فالمكان المعين رغم استتاره لدى المزاول ، أو الوسيط، يخضع بدوره لهذه المعطيات ؛ التى تتطلب مضاعفة فى الحذر والكتمان ، وتزكى دور الوسيط ، وهذه المعطيات تساعد دون شك فى الحد من انتشار هذه الظاهرة وشيوعها فى مدن المجتمعات الفتية . حينما تستغل كعوامل إعاقة .

• البنية الأسرية :

لا جدال فى أن البنية الأسرية تشكل بدورها أرضية هامة لإعاقة هذا

النوع من البغاء أو تزكيته ، والمساعدة على انتشاره .. والجدول التالى يحدد لنا تقريباً النسبة المئوية على مستوى الأسرة بين الاستقرار والانسجام، أو الاهتزاز والتفكك والانفصام :

(جدول رقم ٨)

الحالة	النسبة المئوية
أسرة مستقرة أو منسجمة	٣ ٪
أسرة متفككة ومنفصمة	٧٢ ٪
غير محدد	٢٥ ٪

ولئن كنا فى هذا الجدول أجملنا بنية الأسرة على مستوى التجانس والانسجام والاستقرار ، أو مستوى التفكك ، والاهتزاز ، والانفصام ، فالهدف هو الوصول إلى نسبة مئوية تقرب لنا الرؤية وتبسطها .. فواقع التوثيق المعتمد على مختلف وسائل البحث فى ملفات الحالات ، والاستقصاء بالملاحظة وشتى طرق الإحالة فى هذا المضمار ، أكد بصورة قطعية أنه خلف أغلب حالات البغاء الوحشى أسرة مهتزة ومتفككة أو منفصمة بالطلاق صراحة بنسبة ٧٢ ٪ أو ضمنياً رغبة فى الاحتفاظ بالدخائل الأسرية وأسرارها ، أو فى شكل حالات غير محددة جهاراً وعلانية ، نتيجة لشرطيات معينة تلزمها (بالتستر ٢٥ ٪)

وندر بالتالى وجـود بغاء وحشى فى الأسر المتجانسة المنسجمة المستقرة (٣ ٪) وربما مردها للشذوذ لظروف صحية أو جنسية نتيجة لخلل وظيفى ، أو الصدفة أو الانزلاق وعدم الاحتراس . . وهكذا شكلت الأسرة المستقرة عاطفياً ومادياً ونفسياً، ومتجانسة جسدياً، ومنسجمة معنوياً ، أكبر مناعة ضد الانحراف البغائى وتزكية مسيرة القناعة والرضا والتطلع المشروع إلى تحقيق الرغبات .

وفيما يعنى الأصداء فى مدن المجتمعات الفتية فالنسبة تقريباً لا تختلف – اللهم إلا فيما هو خاص بالحالات غير المحددة – حيث تزيد نوعاً ما ، نتيجة لعدم الإفصاح والإعلان . ولا شك أن البنية الأسرية فى حد ذاتها فى المجتمعات الفتية خارج المدن الكبرى ، ما زالت لحسن الحظ ، بفضل الالتزام بالتقاليد المتوارثة الروحية الأصيلة ، تحتفظ بقوتها وفاعليتها .

ولعل أفضل وسيلة للاحتفاظ بهذه البنية القوية هى أن تتم عملية ترشيدها وتوعيتها دون إضعاف لقيمها التقليدية والمعنوية والروحية . . وهذا ما سوف نعود إليه فى خاتمة هذه الدراسة .

- **الحالة الصحية جسدياً ونفسياً :**

إذا كان من الصعب التعرف على الحالة الصحية لمزاولى هذا النوع من البغاء بصورة واضحة ونهائية ، فقد استقينا رغم المعوقات بعض العناصر – من دراسة الحالات وعلى ضوء التوثيق فى مجمله – التى مكنتنا من إعطاء نسبة مئوية تقريبية بهدف تبسيط الرؤية . . وهى توضح لنا حجم المعاناة جسدياً أو نفسياً فى الجدول التالى :

(جدول رقم ٩)

الحالة	النسبة المئوية
معاناة جسدية	٨ ٪
معاناة نفسية	٤٥ ٪
غير محدد	٤٧ ٪

إن كانت نسبة « غير المحدد » قد وصلت إلى ٤٧٪ لدى مزاولى البغاء الوحشى ، بسبب صعوبة التعرف موضوعياً على الحالة الصحية جسدياً ونفسياً – كما أشرنا سلفاً – إلا إذا كانت المعاناة الصحية ذات ارتباط

مباشر ببعض وقائع التوثيق ، ومن ثم يمكن تصيدها . . ومع هذا فإننا نلاحظ ، بالنسبة لما تمكنا من استقصائه واستنتاجه، أن المعاناة الجسدية تكاد تكون محدودة للغاية ،أمام المعاناة النفسية بجوانبها العاطفية والعصبية، خصوصاً بعد فشل فى علاقة ، أو زواج أو حب بصفة عامة ، أو نتيجة للظروف المحيطة التى تهيىء للاهتزازات النفسية والعصبية .

وكثيراً ما شكلت المزاولة للبغاء الوحشى فى حد ذاتها معاناة نفسية تساعد على مزيد من المزاولة ، ومن ثم إلى مزيد من المعاناة ، كحلقة مفرغة قد تؤول فى النهاية إلى الانهيار العصبى ، أو حتى إلى الانتحار ، خصوصاً إذا ما صوحبت بمزاولة انحرافات أخرى ، كتعاطى المخدرات، أو احتساء الخمر ، أو لعب الميسر بإدمان . . فكثيراً ما تجسد هذه الظواهر قاسماً مشتركاً يزكى بعضه بعضاً . . .

وأما الأمراض الجنسية فلا يمكن استبعادها من هذا الإطار ، وكذا انعكاساتها على الحالة الصحية جسدياً ونفسياً ، خصوصاً حين التعثر فى التخلص علاجياً منها بسهولة ، نتيجة للأنواع الخبيثة من هذه الأمراض.. أما حالات الإجهاض ومتاعبه الصحية ، فهى بدورها محدودة نتيجة للتقدم فى وسائل الوقاية من الحمل وتنوعها ، بل إن هذا التقدم شكل مساهمة مشجعة فى المزاولة .

• الوضع القيمى روحياً وأخلاقياً معنوياً وسلوكياً :

مما لا شك فيه أن الاعتقاد فى القيم الروحية والأخلاقية ، ثم مدى الالتزام بها يلعب دوراً أساسياً فى قابلية التأهيل لهذه المزاولة الانحرافية، إذ أن الوضع القيمى يشكل مقاومة داخلية ، ومناعة ذاتية أمام مبررات الإغراء . .

والجدول التالى يقدم لنا صورة تقريبية عن هذه الوضعية فى مختلف أبعادها الاعتقادية والالتزامية :

(جدول رقم ١٠)

الحالة		النسبة المئوية
روحانيات	معتقد مشاعرياً	٢٠ ٪
	مطبق شعائرياً	٧ ٪
	لا جدوى	٥٣ ٪
	غير محدد	٣٠ ٪
أخلاقيات	معتقد معنوياً	١٠ ٪
	ملتزم سلوكياً	٠ ٪
	لا جدوى	٦٥ ٪
	غير محدد	٣٠ ٪

على ضوء هذا الجدول التقريبي ، المستقى من واقع التوثيق بوسائله المختلفة ، يمكننا أن نستنتج مبدئياً ــ بالنسبة لمزاولة البغاء الوحشى فى نماذج المدن الغربية ــ كمجرد مثال ــ أن هذه المزاولة مرتبطة بضعف الوضع القيمى روحياً وأخلاقياً ، فإن كان العامل الاقتصادى على مستوى الرفاهية ، لا على مستوى الضرورة ، يجسد محور ارتكازها ، فالوضع القيمى وغيبته يعطى فاعلية لهذا العامل على حسابه . فكما يتضح من الجدول فإن نسبة « اللاجدوى » للقيم الروحية فى هذا العصر ، عصر الرفاهية المادية ، قد وصلت إلى ما يزيد على النصف ٥٣ ٪

وإذا ما أضيفت إليها نسبة « غير المحدد » من الساكتين ضمنياً عن الحكم ، وإمكانية تفسير هذا الصمت لصالح الروحانيات ، أو عدم جدواها ، وبالتالى استبعاد تقنين هذه النسبة فى المعدل العام ، فستجد أن الروحانيات اعتقادياً وتطبيقاً لا يتجاوز الالتزام بها ٢٧ ٪ فى مقابل ٥٣ ٪ المجسدة لعدم جدواها .

وحتى من اعتقدن مشاعرياً من المزاولات ، أى بصفة مجردة ،

فكثيراً ما يكون اعتقادهن عائماً ومبهماً ، وتطبيقهن للشعائر شكلياً ، وسطحياً فى بعض المناسبات ، بعكس البغاء العادى باسم الضرورة والحاجة ، الذى لوحظ بالنسبة له تدين بعض باغياته اعتقادياً ، وطلب الغفران والرغبة فى التوبة ، فمزاولة البغاء عند هذه الفئة الأخيرة يلعب الاضطرار دوراً لا ينكر فى تبريره .

ولقد كان لسلبية الروحانيات أثر فى الخلقيات كمبادىء ومثل ومعنويات ، أو كسلوك ، فمن الخطأ تصور خلقيات ذات فاعلية فى غيبة الأرضية الروحانية ، فمن ينكر الخالق ، ويتنكر له ، يهون عليه التنكر لقيم صنعها المخلوق ، فالقيم الأخلاقية هى امتداد للقيم الروحية ، وحينما تخلع الجذور تموت الفروع . . .

وهكذا جاءت نسبة الوازع الخلقى والاعتقاد فيه معنوياً ، لا يتجاوز ١٠ ٪ وغالباً ما يكون مرد ذلك إلى عدم المجاهرة بهدف التغطية لا أكثر ولا أقل ، وفاقد الشيء لا يعطيه .. ولعل الالتزام سلوكياً بالأخلاقيات جاء أكثر وضوحاً ٠ ٪ أى لا شيء ، وسيطر اتجاه « لا جدوى » و « لا فائدة » ٧٥ ٪ باعتبار أن السلوك الأخلاقى يأتى كردود فعل لسلوك أخلاقى لدى الآخرين ، فإن كانوا بدورهم لا يلتزمون بذلك فستسيطر النفعية والمصلحية كأساس للسلوك العام وردود فعله فى المجتمع ، وهذا ما حدث فى العديد من المجتمعات الاستهلاكية ليس فقط للمواد وإنما للقيم ..

وأما الأصداء فى المجتمعات الفتية ومدى الاهتزاز فى الوضع القيمى روحياً وأخلاقياً ، معنوياً وسلوكياً ، فيمكن إجمالا الإشارة إلى إيجابية التقاليد كوسائل للضبط الاجتماعى ، فى الحد من هذه الأصداء ، وفاعليتها حتى الآن ، وعدم محاكاتها جذرياً ، فإن كانت موجة التخلى عن الروحانيات قد وصلت أصداؤها فعلا إلى شواطىء المجتمعات الفتية مقنعة مرة بالعقلانية ، وأخرى بالعصرانية ، فما زالت مترددة أمام مناعة وأصالة التقاليد ،

والالتزام القيمى فى البنيات الأسرية . ومن ثم فتيار «لا جدوى ولافائدة» للروحانيات والأخلاقيات ما زال يعيش فى الكواليس ، وغير قادر على مواجهة صرامة هذه الأصالة وهذا الالتزام ، اللهم إلا فى بعض المدن الكبرى .

ولعل هذا بدوره يشكل عاملا هاماً فيما يتصل بالمجتمعات الفتية ، للحد مستقبلا من انتشار البغاء الوحشى فيها ، إذا ما دعم موضوعياً إطار المناعة والحصانة المجسد ، فى الأصالة والالتزام تفهيمياً وحوارياً ، لا ردعياً ولا زجرياً ... (وسوف نعود إلى هذه القضية فى المبحث الثالث ،وكذلك فى خاتمة هذه الدراسة) .

● **الوضع الطبقى حسب الدخل :**

نظراً لأهمية العامل الاقتصادى ، وبالتالى الدخل ، وعلاقته بتحقيق مستوى الرفاهية ، لا مستوى الضرورة والحاجة – حيث إن البغاء الوحشى يتحرك فيه العامل الاقتصادى ، لمزيد من الرفاهية والرخاء والاستهلاك – فقد قسمنا مستويات الدخل ، من خلال البنيات الطبقية الرئيسية وشرائحها إلى : تحتية وفوقية ، وما بينهما ، فجاءت على هذا النحو فى الجدول التالى :

(جدول رقم ١١)

الحالة		النسبة المئوية
شرائح البنية التحتية	تحتية التحتية	٠ ٪
	وسطية التحتية	٥ ٪
	فوقية التحتية	١٤ ٪
شرائح وسطية	تحتية الوسطية	١٨ ٪
	وسطية الوسطية	٢٨ ٪
	فوقية الوسطية	١٧ ٪
شرائح البنية الفوقية	تحتية الفوقية	١٠ ٪
	وسطية الفوقية	٦ ٪
	فوقية الفوقية	٢ ٪

ولافتراض وسطية الدخل لتصميم هذا الجدول اتخذنا كمعيار لها ، في مدن المجتمعات الغربية كنماذج ، تأمين الغذاء والكساء والسكن والعلاج وقضاء العطلات الموسمية ، وتأمين تربية الأطفال إن وجدوا وعلاجهم ، بمعنى حياة متوسطة كريمة لأسرة قانعة دون تطلعات كمالية ، ودون معاناة من الضروريات ، فما دونها شرائح تحتية ، وما يتجاوزها شرائح فوقية .

ويلاحظ من الجدول أن البغاء الوحشي يتدرج في الغرب مع الشرائح حتى يصل إلى قمة انتشاره في شريحة وسطية الوسطية ، ويبدأ في التضاؤل تدريجياً ، لحساب نوع آخر من البغاء ، الذي يمكن أن نطلق عليه « بغاء الحظوة » في شرائح البنية الفوقية أي أن الجانب الاقتصادي لا يتصدر — وإن كان لا يختفي — بقدر ما يتصدر جانب الرغبة في التغيير وتجاوز الملل الجنسي ، وذلك حين غيبة الوازع الروحي والخلقي أو ضعفهما ، أو نتيجة لاضطرابات نفسية وعصبية ، أو العيش في سط تبني الفراغ ، أو الانحلال والشذوذ ، كسلوك عادي ، بل يكاد البغاء الوحشي يختفي (٢٪) في شريحة فوقية الفوقية لترك المكان « لبغاء الحظوة » هذا...

وبالنسبة لشرائح البنية التحتية إذا كانت الشريحة الأولى تحتية التحتية تجسد مصدراً أساسياً « للبغاء العادي » بغاء الضرورة والحاجة في العديد من المجتمعات ، باستثناء المجتمعات التي تتحلى بالقيم الروحية والأخلاقية قولا وفعلا . وتلتزم بأرضية القناعة في إطار بنيات اجتماعية متوازنة ، حققت الكفاية والحاجة ، فهذه الشريحة لا تغذي « البغاء الوحشي » بمزاولات (٠٪) ، لأن قسوة الحياة وثقل الضرورة قلما يؤهلان المزاولة للالتقاط الترفيهي ، والبغاء باسم الرفاهية . فهي إما أن تحترف نهائياً ، وإما أن تمتنع نهائياً ، حسب أوضاعها ومعطياتها ، بينما حينما تبدأ التطلعات « وسطية التحتية » يبدأ الفضول مع التردد مما شكل نسبة ٥ ٪ ..

ومع تكثف التطلعات نحو كماليات الرفاهية والتعود عليها ، هذه

الكماليات التى تشكل بدورها حافزاً للمزيد منها ، ومن الاعتياد عليها ، بما لا يتناسب مع الدخل ، الذى يكفى فقط لإشباع الضروريات ، تبدأ نسبة المزاولات فى الازدياد (١٤٪) فى شريحة « فوقية التحية» ثم تصعد فى بداية شرائح الوسطية إلى ١٨ ٪ ، وتصل إلى قمة المزاولة فى وسطية الوسطية ـ كما ذكرنا آنفاً ـ والتى تشكل مفترق الطرق : عدم الرغبة فى النزول إلى أسفل والاكتفاء ، وصعوبة الاحتفاظ بمستوى حياة لا يتناسب مع الدخل موضوعياً ، نتيجة لتطلعات فوقية متجددة ومتنوعة نحو الكماليات .

مثال : جاءت العربة ليأتى بعدها التليفزيون ثم الملون منه ، ثم توسيع السكن ، ثم تغييره ،يضاف إلى ذلك التمشى أولا بأول مع أنماط الملابس ، والحلاقة ، والتزين ، والأحذية ، وتغيير أطرزتها بمناسبة ، وربما بدون مناسبة . . . !

وهكذا تسقط المزاولة فى بوتقة مصطنعة من الرغبات ، والترفيه ، والرخاء ، والرفاهية المختلفة ، بما لا يتناسب مع الإمكانات ، ومع شرائح البنية الفوقية تتراجع نسب « البغاء الوحشى » أمام «بغاء الحظوة» والانحلال ـ لمجرد الانحلال ـ مع رغبة صميمة أيضاًفى تقبل وسائل الرفاهية المقنعه ، فى شكل هدايا ثمينة ، والتفاتات سخية . . فغيبة الوازع الروحى والأخلاقى بصفة خاصة ، تجسد لنا المبدأ القائل : « من يهن يسهل الهوان عليه »هذا فيما يعنى الوضع الطبقى حسب الدخل فى المدن الغربية المتقدمة .

أما فيما يعنى الأصداء فى مدن المجتمعات الفتية ، فبصفة عامة فاعلية العامل الاقتصادى تلعب لصالح « البغاء العادى » المعروف والمتعارف عليه ، خصوصاً فى البنية التحتية بشرائحها الثلاث ، نتيجة للضرورة والحاجة ، بينما «البغاء الوحشى »يتمركز فى شرائح الوسطية، وينعكس على بعض شرائح البنية الفوقية ، غير أن الضبط الاجتماعى بمستوياته المختلفة :

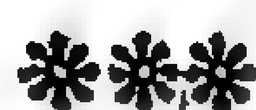
تقاليد وعادات وقيم زوجية ، يخفف من حدة تحكم العامل الاقتصادى فى السلوك جهراً ، وإن كان ضمنياً لا يمكن إنكاره .

وعلى هذا فالوضع الطبقى حسب الدخل يؤكد لنا تصدره فى تغذية « البغاء الوحشى » المرتبط عضوياً بالدخل ، ومدى وفائه لتطلعات الرفاهية والكماليات الاستهلاكية ، إلى جانب اهتزاز الوضع القيمى بروحانياته وأخلاقياته المبدئية والمعنوية والسلوكية ، والشهية الاستهلاكية تجسد الدوافع والحوافز ، بينما الوازع القيمى يجسد الحواجز والموانع .. وشهيه متنوعة متعددة تبحث عن مزيد من الإشباع على كل المستويات ، ووازع قيمى أضعفت مناعته ، وضعفت حصانته ، يحاول مستميتاً أن يستعيد الحواجز أمام هذا الفيض المدمر ، إن طال ، لإنسانية الإنسان، وبنية الأسرة وعلة وجودها .

هذه المواجهة بين الشهية الإشباعية المتفتحة بشراهة ، والوازع القيمى عكست بدورها واقعها فى شكل صراع داخلى ، نفسى ، وعصبى ، وجسدى ، بصفة عامة .. فمعاناة ابن القرن العشرين تكمن أساساً فى وعيه بهذه المعاناة ، بين جسد يبحث عن الإشباع والترفيه والرخاء ، يحاول إخضاع النفس لتصبح أمارة ، غير راضية ولا مرضية ، وتزين له معطيات ومتطلبات هذا العصر ، واقع المعاناة يبررها ، مرة باسم حقه الحتمى فى الإشباع ، ما دام لا يقع تحت طائلة القانون صراحة ، وأخرى باسم عدم صلاحية القيم وقدمها ، وعدم قدرتها على التحديث والعصرنة ، وبالتالى يجب إلغاؤها جهراً أو ضمناً .. !!

وغاب عن الكثيرين أن المسيرة الخالدة للإنسانية لم يقدها إلغاء البغاء، وإنما قادها هذا التعادل الخالد ،وهذا التوازن المقدس بين المادى والروحى ، بين الدنيوى والأخروى ، بين الجسد والنفس ، وحينما يلغى أحدهما يفقد الآخر ضمنياً علة وجوده بالضرورة والالتزام .

وحتى نطرح نتائج هذه الدراسة موضوعياً في الخاتمة، سوف نتعرض في الصفحات التالية لهـــذه العوامل المهيئة : تسلط الإشباع المادى ، والاستسلام له من ناحية ، وضعف الوضع القيمى فى مواجهته ، مما أدى إلى وجود عامل ثالث مساهم كانعكاس لصراعهما ، ضراع المادى والقيمى ، ونعنى به العامل الصحى نفسياً ، وعصبياً ، وجسدياً ، بصفة عامة . . والنتيجة أن الإطار السببى للبغاء الوحشى تشكله هذه العوامل الرئيسية الثلاثة والتى سنلقى عليها نظرة تحليلية موجزة وتقنينية مركزة. فى المبحث الثالث والأخير من هذه الدراسة .



المبحث الثالث

الإطار السببي للبغاء الوحشي
(نظرة موجزة في العوامل المهيئة)

انطلاقاً من الإطار الوصفي في المبحث السابق يمكننا أن نبلور العوامل المهيئة لسببية هذه الظاهرة في عاملين أساسيين هما : العامل الاقتصادي ، والعامل القيمي ، إلى جانب عامـــل ثالث مساهم في تزكية العاملين وفاعليتهما ، وهو العامل الصحي جسدياً ، وعصبياً ، ونفسياً . . .

ولئن كان العامل الاقتصادي يشكله التسلط الإشباعي الغرائزي ، والبحث عن الرفاهية الاستهلاكية ، بما لا يتناسب مع الدخل ، فالعامل القيمي يعني اهتزاز أرضية المعايير الروحية والأخلاقية ، مبادئية كانت أم معنوية أم سلوكية ، مما أدى إلى فقدان التوازن والتعادل في داخل ذات إنسان القرن العشرين ، وولد صراعاً خفياً مضمراً بين إنسانيته المتطلعة إلى التسامي ، وحيوانيته الغرائزية المندفعة وراء الإشباع ، فبات إنساناً حائراً ممزقاً ، بقدر ما يتغنى بالمثل الإنسانية مظهرياً ، بقدر ما يتنكر لها وينكرها سلوكياً ! !

ولقد انعكس هذا التناقض على الجسد فغاص في لجج المعاناة عضوياً ، وعصبياً ، ونفسياً ، باحثاً عن تعادل في اللاتعادل ، وانتشرت أمراض العصر . . . أمراض الرفاهية ، وهي أمراض تعني معاناة الجسد ، والنفس من كل شيء ، وليس من شيء محدد ، يشكو صاحبها من الأرق والضيق ، والقلق والسأم ، كما يشكو من اضطراب وظائف الجسد وأجهزته ، دموية أو تنفسية ، أو هضميـــة ، يعيش بين المهدئات والمقويات وقد استعصى على القانون الطبيعي الخالد في الجسد بعد أن أفسد ولوث ضبط تعادله وتوازنه .

- **العامل الصحى جسدياً وعصبياً ونفسياً وعقلياً :**

وفى هذا المضمار تتفشى أمراض الرفاهية ، بنشرها ميكروبات أقوى مقاومة ومناعة من الميكروبات الطبيعية (بعد أن قضى العلم نسبياً على بعض الضار منها) ، وهى ميكروبات : الغش ، والخداع ، والملق ، والرياء ، والكذب ، والنفاق ، والتذبذب . . . كل ذلك فى سبيل إشباع وقتى لغريزة ، أو اقتناء لسلعة زائلة .

لقد تفشت هـذه الأمراض الآن ، وإن كانت قد سايرت ركب الإنسانية عبر كل العصور ، إلا أنها الآن أخذت شكلا وبائياً يختفى خلف أستار من المسميات التغميضية التبريرية .

وتصدر « البغاء الوحشى » قائمة هذه الأمراض معتمداً — من ناحية ، وفى إطار التبرير — على فلسفة الإشباع بأى ثمن وبأى مقابل ، ومن ناحية أخرى مستغلا غيبة أى وازع روحى أو خلقى مبدئى أو معنوى أو سلوكى ، يحد من هذا الإشباع المدمر ، أو يوقف مده . . . هذا بالإضافة إلى ما لا يمكننا أن نتجاهله ونحن بصدد العامل الصحى ، وهو الدور المزدوج الذى لعبه التقدم الطبى فى وسائل منع الحمل ، وفى علاج الأمراض الجنسية بالمضادات الحيوية ، فلئن كان من ناحية أفاد دون شك ، فمن ناحية أخرى سهل فى هذا المضمار عملية التغلب على الآثار التى كانت مبعثاً لدى البعض إلى التردد وعدم المجازفة . . .

ولقد زكى الجسد المتعب المرهق عضوياً وعصبياً ونفسياً ، وحتى عقلياً ، التفاعل السلبى بين العاملين الاقتصادى والقيمى ، فانقلبت مقاومته إلى مساهمة . . :

وهذا قد يطرح تساؤل ضمنى ، وهو : هل هناك أجساد بتكوينها البيولوجى مهيأة للرذيلة ، ولها قابلية أكثر للانحراف والانحلال ؟ أو بمعنى آخر وهو : ما دمنا بصدد العامل الصحى جسدياً ونفسياً وعصبياً ، فإلى أى

مدى تبرز العلاقة بين العامل البيولوجى ، وبين التأهيل للانحراف ، وقابلية مزاولة البغاء ؟

إن تبنينا للاتجاه القائل بتعدد العوامل فى سببيـــة الظواهر الاجتماعية causalité pluraliste يملى علينا بالضرورة استبعاد وجود عامل أوحد مسلم به على الإطلاق . . . فالمنحرف هو ابن بيئته الأسرية والاجتماعية ، بأوضاعها وظروفها المختلفة (— اللهم إلا فى الحالات الشاذة المرتبطة بقصور عضوى ، أو تخلف عقلى ، والحالات الشاذة تحفظ ولا يقاس عليها —) ومن ثم فإن كان للعامل البيولوجى فاعلية فمردها حركيته بين عوامل أخرى ، ثم يجىء هو كمزك ومساهم أو محدد ومقاوم ، لا أكثر ولا أقل . . .

على أننا نلاحظ ذلك فى الكثير من الحالات بالنسبة لمن عرفوا طفولة معقدة مليئة بالكبت والتوعك ، أو من عاشوا فى ظروف أسرية مهتزة ، أو من عانوا من القهر والضغط ، أو تعرضوا للاغتصاب أو من لم ينعموا بحياة زوجية مستقرة راضية مشبعة ، أو من كانوا بصفة عامة عرضة للعصابيات فى مختلف أشكالها ومناحيها . . . هذه الحالات قد تسهم فى تزكية الميل لتعاطى ومزاولة هذه الظاهرة ، والعكس صحيح . . . بمعنى أن غيبة هذه الحالات وما أشبهها قد يعطى مناعة مضمرة تقاوم الإغراء والانحراف لأمد طويل ، وربما حتى نهاية العمر ، رغم الميل إليهما . . .

ولا يمكن بحال عزل هذه الحالات ، وقصرها على عامل الاستعداد البيولوجى فهى فى عمقها انعكاس بيئى أسرى أو اجتماعى على الجسد ، كمتأثر بالبيئة ومؤثر فيها . ومن هنا كان قولنا بتعدد العوامل — كما أشرنا سلفاً — لا بانفراديتها أو أوحديتها ، وإعطاء الأولوية فى هذه العوامل لما هو أساسى فى البيئة الأسرية والاجتماعية ، ونعنى بذلك العامل الاقتصادى مع العامل القيمى . فليس من الصواب فى شىء تصور حركية وآلية للعامل الاقتصادى بمعزل عن الإطار القيمى وكذا العكس .

ولعل الخطأ الشائع الآن – بعد أن أصبح خطأ مشروعاً تحت ثقل الخلفيات الأيديولوجية وتزييه بزيها – يكمن فى تسليط الأضواء على العامل الاقتصادى فى بنيات المجتمع ، باسم الحرية الفردية تارة ، وباسم الانضباط وتحقيق مجتمع الكفاية الجماعية تارة أخرى ، وفى الاعتقاد بأن «الاقتصادى» له قدرة تكاد تكون «سحرية» فى بناء المجتمع الأمثل . . . إذ أنه لايقف عند حد إشباع البطن وإنما يغرس الأخلاق ، ويغذى المثل ، ويكيف المعنويات ويدعمها ، وغاب عن الداعين لذلك ، أن الإنسان لم يصنع مثله من بطنه ، وإنما بعقله ، ومن يدرى فبقدر ما تشبع البطن وتتسع الشهية ، بقدر ما يزيد دهاء الإشباع ومكره فى استلاب الآخرين . . .

إن العامل الاقتصادى يشبع البطن وما حولها دون شك ، ولكنه لا يخلق التسامى فى الإنسان بالضرورة . . . إن التسامى من فضائل العقل الذى خصه الله تعالى به وفضله على العالمين . . . إن إنكار العامل القيمى أو الارتداد به كمجرد مسطح من مسطحات العطاء الاقتصادى ، هو تنكر لمسيرة الإنسانية السمحاء ، التى صنعها الرسل والأنبياء وساهم فيها الفلاسفة والحكماء ، ولم يصنعها أصحاب المطاعم والمخابز والحانات ومن على شاكلتهم ، ممن سهروا على إشباع البطن .

ومن هنا فالاحتكام إلى البطن فقط ، هو زعم يرمى الإنسان بالتدمير لأسمى مافى الإنسان ، بعد إلغاء أو مسخ تاريخ إنسانيته . . . ولكن مع هذا لا يمكن بحال – كما سنرى – إغفال العامل الاقتصادى فى بنية المجتمع ، وسببية الظوهر الاجتماعية ، شريطة ربطه بالعامل القيمى ، فهو إما أن يتجه بالإنسان إلى البناء والخلق والتشييد والتدعيم لإنسانيته ، أو يتجه به إلى الهدم والتدمير والإفلاس .

ذلك كله رهن بمدى فاعلية العامل الثانى الأساسى أيضاً . وهو عامل القيم بروحانيته ، وأخلاقياته المبدئية والمعنوية والسلوكية ، وهذا ماسوف نوضحه باختصار حين تحديدنا لأبعاد العامل الاقتصادى فى غيبة القيم ،

وكيف يلعب دوراً أساسياً فى التهيؤ للبغاء الوحشى ، تحت ثقل الاستلاب بالاستهلاك ومتطلبانه وأهوائه .

- **العامل الاقتصادى :**

تصدر العامل الاقتصادى – كما هو معروف – بنية الأسرة ومتطلباتها ، والبنية الطبقية وصراعها وتطلعاتها ، بل كان وراء الاستغلال لخيرات الشعوب المغلوبة على أمرها ، كما كان وراء الحروب الطاحنة فى هذا العصر ، والتى لم تشهد البشرية مثيلاً لها من قبل ، فى عدد الضحايا ، وفى وسائل العنف والتقتيل ، واغتصاب الأرض ، بل والمصادرة الجماعية للإنسان .

على أن الذى يعنينا من أبعاد هذا العامل الاقتصادى فى هذه الدراسة ، هو البعد الخاص بتأثيره الفعـــال فى تفكك العواطف الأسرية ، وانفصام بنيتها ، والاتجاه بها إلى التحلل والانحراف بعد أن ضمرت فيها مشاعر العطاء والبر .. فالبغاء الوحشى بما له من إضمار وتقنع واستتار ينخر فى بنية الأسرة المنهارة ، وينحرف بأهدافها السامية إلى رغبات استهلاكية زائلة .

ولقد ساعد على ذلك ما أعطاه التقدم العلمى والتكنولوجى وتطبيقه فى الصناعة من إمكانات استهلاكية ، متعددة ، متنوعة ، متجددة مغرية .. فلم يعد الإنسان يكتفى – كما كان الشأن فى العصور الماضية – بسرير ينام عليه حتى يتآكل أو ينكسر ، أو لباس يرتديه حتى يبلى ، وبيت يقيه حر الصيف ، وبرد الشتاء ، ودابة يعتلى ظهرها فى أسفاره وتنقلاته وترحاله ، حتى تموت أو يموت .

فالإنسان حين يرتفع به مستوى الحياة آنذاك قد يجد المال ولكن لا يجد البديل الذى يغريه بالشراء والاقتناء والتبديل ، فالسرير هو السرير ، والرداء هو الرداء ، والبيت هو البيت ، والدابة كما هى ، فليس لكل عام طراز من الدواب . وكان عليه إما أن يكتنز المـــال ، أو يتملك المزيد من الأرض والعقار ، أو يحلى ما لديه بالذهب والفضة ويرصعه باللؤلؤ والمرجان .

وحتى إذا ما استبدل اللباس أو ضاعفه وكذا الأثاث والدواب ، لا تعميه وسيلة الحياة عن غاية الحياة ، فضلا على أن الاستبدال والتغيير ومضاعفة الاقتناء كان مقصوراً على فئة محظوظة محدودة فى المجتمعات البشرية ، تحتكر ذلك وقفاً عليها وتمنعه عن غيرها ، إلا إذا استجابت للغة السماء الداعية إلى العدل والمساواة .

وبعد أن أمكن استخدام العلم والتكنولوجيا فى الصناعة وأوجه نشاطها المختلفة على أوسع نطاق ، تصدرت فلسفة الإنتاج كأرضية لكل تقدم مجتمعى . . والإنتاج بدوره لا يمكن تصوره بدون استهلاك وتطور فى وسائله وطرقه ، وبدأ وباء الاستهلاك ، حباً فى الاستهلاك ، ينتشر بفضل تدخل وسائل « الماس مديا » الاتصال الإعلامى سمعية وبصرية ومكتوبة ، والتى استطاعت بما لها من تأثير فى الإشهار والدعاية ، أن تولد رغبات استهلاكية مفتعلة ومصطنعة ، عن طريق مجرد الانجذاب والتأثير والإغراء .

وقد أصبح كل شيء يمكن تغييره باسم أسطورة العصر « الموضة أو الطراز» فبات لكل عام طراز فى اللباس والحلاقة والدواب الميكانيكية ، والأدوات المنزلية ، والأثاث .. بل أضحى لكل فصل من السنة طرازه ، ولابد للأطرزة المختلفة أن تنسجم وتتجانس فيما بينها ، فإذا ما غير شيئاً لديه عليه ان يغير بقية الأشياء حتى تتمشى مع الطراز ، وبدأت الأطرزة الاستهلاكية تكثر وتنتشر ، تكبر وتصغر ، تتنوع وتتلون ، واستعبد الإنسان بما صنعت يداه ..

هذا إلى جانب ما يعانيه من متاعب وجهد فى سبيل اقتنائها . . فهذه الأطرزة لا تمنح مجاناً ، أو تقدم فى شكل هبات ، بل لابد من إعطاء الثمن ، ولكن ما الحيلة ؟ الدخل محدود والسماء لا تمطر ذهباً ولا فضة ، والعمل شاق ومضاعفته أشق ولا يتحقق فوراً ما يرجى من وراء العمل .

والقناعة .. القناعة جرفها الطوفان وقلعها من ضمير الإنسان ، حين تنكر لكل مقوماته الموضوعية ، فلم تعد القناعة من طراز العصر ، ومن تحلى بها فهو غريب خاسر بين أهله ، أو أبله جهول لا يعرف كيف يحقق مصالحه ومنافعه .

وقد انزلقت أسرة القرن العشرين تلهث منبتة خلف الاستهلاك ، بعد أن حواجز القيم ، وذاب الجوهر لحساب المظهر ، وأصبحت الأسرة لا تقاس بمثلها وقيمها ، ومقوماتها الروحية والأخلاقية ، والتزامها السلوكي — اللهم إلا في الأسرة التقليدية ، ولكن إلى حين ! ! — وإنما تقاس الأسرة بما تقتني من أجهزة وأثاث ، ودواب مكانيكية من آخر طراز ..

ولقد كان طبيعياً أن تنعكس هذه الأوضاع على بنية الأسرة فتعطى الأهمية للمظاهر ووسائل الاستهلاك ، ولم تعد العلاقات تحدد بمعايير قيمية موضوعية ، وإنما تقاس بالقدرة الشرائية ، وبما تلبس وما تقتني ، وما تستعمل ، بغض النظر عما تلتزم به من مثل أو قيم ! ! وأصبح الهدف الأسمى « رفع مستوى الدخل » سواء أكان بطرق مشروعة أو غير مشروعة ، فهذا أمر غير وارد ! !

ومن منطلق أن الطرق المشروعة تتطلب الاناة ، وتحتاج إلى العمل ، وتلتزم بالتواصي بالحق وبالصبر — وهذا لا يتمشى مع سرعة العصر — فلتكن إذن الطرق غير المشروعة ! وإذا عم البلاء هان ! فالقدوة في المجتمعات المتقدمة صناعياً ، اختفت أو كادت ، إذ نلاحظ صباح مساء في هذه المجتمعات الأكثر تقدماً ، والعريقة في التعاظم والعظمة ، سلسلة متصلة الحلقات من الفضائح ، والرشوة ، والغش ، والاحتيال !

كما نلاحظ السطو والنهب ، وإذلال الشعوب الباحثة عن طريقها ، وقتل أو شل التطلعات المشروعة لديها ضمنياً باسم « التكتيك » والاستراتيجية وهي في الصميم من الغش والنفاق والخداع ! ! حتى انطبق قول شاعرنا على ما نشاهده ونراه اليوم :

قتل امرىء فى غابة جريمة لا تغتفر
وقتل شعب آمن مسألة فيهـا نظر ! !

هذا .. وقد سيطر على إنسان القرن العشرين المتقدم واقع التبرير بدلا من منطوق القيم ، وأصبح كل شيء قابلا للتبرير دون التزام ، بأى مثل أو أخلاقيات ، والهدف الأسمى « رفع مستوى الدخل » أولا وأخيراً ، ولو باسم الانحراف ! !

فالبغاء الوحشى هو فصل من فصول مسرحية القرن ، مسرحية البغاء ، لا على المستوى الجنسى المحدد ، ولكن على كل المستويات ، فردياً وأسرياً ، وطبقياً ، ومجتمعياً (إلا من اعتصم براية الله وبراية المثل الداعية لحتمية مصير إنسانية الإنسان لا حيوانية الإنسان) .

إن شعار رفع المستوى الموهوم لتحقيق المزيد من التطلعات الاستهلاكية قد طغى وسيطر ، واستئجار الجسد يعد الآن من أكثر السلع الوائجة ربحاً بعطائها الفورى لرفع هذا الدخل .. ويكفى أن نعطى كمجرد مثال مانشرته « دل ستريت جورنال » عن مدينة نيويورك من أن : « ١٠٠ باغية دخلهن فى السنة وصل إلى ٦ مليون دولار ، وأغلب المزاولات التقاطية (بمعنى وحشية بلا مقدمات) حين الخروج من العمل كتكملة له بشكل أربح وأجزى ، وفى أماكن التدليك ، والصالونات الخاصة ، وتتزايد المزاولة بعد الزواج — وعند المطلقات بصفة خاصة ، وفى النصف الأخير من الشهر فى الأحياء المكتظة ، حتى يسهل الاستتار والتقنع ، وكذلك لدى الطبقات الوسطى ، وهى عن أكثر الطبقات تطلعاً ، بعد أن تجاوزت سلم الضرورة والحاجة ، وفتحت شهيتها لرغبات لا تتعادل مع دخلها ، وأصبحت — حسب تعبير المصدر المشار إليه آنفاً — حسناوت النهار أكثر ربحاً من حسناوات الليل » .

ومن هنا فإن المزاولات لـ « البغاء الوحشى » الالتقاطى فى النهار أكثر ربحاً من المزاولات المحترفات للبغاء العادى فى الليل ، على نواصى

الشوارع وأمام وفى داخل الحانات ،أما القيم بروحانياتها وأخلاقياتهاالمبدئية والمعنوية والسلوكية ، وهى الوحيدة القادرة على مواجهة تيار الانزلاق ، فلم تعد من طراز وسمات العصر ، ولا يمكن إضافتها إلى الرصيد البنكى أو التكسب بها فى سوق الاستهلاك .

• العامل القيمى وغيبته :

إن العامل القيمى وغيبته المتمثلة فى اختفاء الوجدان الروحى المغذى بل بل الدافع الأساسى للالتزام بأى قيم أخلاقية موضوعية تكون بدورها معياراً لأى وازع معنوى أو سلوكى..هذه الغيبة جعلت العامل الاقتصادى يتحرك سلبياً فى بعد واحد وهو بعد الإشباع .

لقد تحركت غرائز الإنسان لتوجه عقله ، وتملى عليه وسائل التبرير لسلوكها ، وخلا الجو من الرقيب بعد أن ضعف الالتزام بالقيم ، بل وأصبح الالتزام ، إلى حد ما ، فى عدم الالتزام . . ولكن لماذا ضاع الالتزام القيمى فى هذا العصر ، بل وصلت القطيعة معه إلى حد التنكر والرفض ؟

دون أن نزعم تنصيب محاكمة لحضارة العصر ، أو نشرح تفاصيلها تشريحاً يخرج بنا عن نطاق الموضوع الذى نحن بصدده ، نشير عرضاً ، استكمالا للعرض ، إلى بعض المسلمات ، وهى أن حضارة الغرب منذ نهضتها انطلقت من التحفظ على « الميتافيزيقيات» والنقد لسلبية التجريد«الماورائية» التى شلت حسب مقولات بعض ممثلى هذه الحضارة ، عطاء الإنسان .

ولقد كانت الدعوة لتنهيج الإنسان من خلال الإنسان ، ومواجهة فلسفة الأرض لفلسفة السماء ، وإعطاء الأولوية للتجريب والملاحظة فى السعى إلى التقدم الملموس ، عوضاً من التأمل المباشر الملفوظ ، وخطت الحضارة الغربية فعلا خطوات قادرة نحو التقدم بوسائل رفاهية ورخاء الإنسان مادياً .

كما استطاعت هذه الدعوة أن تستبدل فقره الروحى وغموضه بغنى مادى واضح للعيان ، ولو على حساب الآخرين . . فلقد أسهم استعمار الشعوب المغلوبة على أمرها وإفقارها ، ونزح خيراتها فى إثراء الغرب ونهضته المادية فسلبوا خيرات الهند وإفريقيا وخصوصاً المواد الأولية ونهبها فى غيبة أهلها . . ولكن هل حلت المشكلة ، أم استبدلت بمشكلة أخرى ؟

لقد تحول التحفظ والنقد إلى تنكر ورفض ، وبدأ التساؤل حول واقع الإلهيات لينتهى بالتحفظ عليها، ثم فى النهاية بالتنكر لها وإنكارها، ولكن غاب عن المتنكرين أن هذا المسلسل لن يقف عند حد الإلهيات لأن مسيرة الإنسانية كأخلاقيات مبادئية ومعنوية وسلوكية تطعمت بهذه الإلهيات وسارت تدور فى فلكها ، أليس « أرسطو » أحد رواد الفكر والفلسفة هو القائل « الأخلاقيات المبادئية — الاتيك — تهدف إلى تحقيق السعادة ووسيلتها الفضيلة والسعادة العليا تكمن فى تأمل الإله ؟ » ، ولا يمكن بالتالى تدمير الأساس مع الاحتفاظ ببقية البناء .

لقد بدأ البناء ينهار تدريجياً طابقاً تلو طابق ، من الأخلاقيات بسعيها إلى التمييز بين الخير والشر والدعوة إلى الخير والابتعاد عن الشر إلى المعنويات بمثلها : من نخوة ، واستجارة ، ووفاء ، وعفة ، وشرف ونزاهة ، وكرم ، وسخاء ، وإحسان ، وبر . وبمشاعرها كالتضحية والتضامن ، والعلاقات العاطفية الأصيلة . . . لتنعكس على السلوك فيصبح سلوكاً نفعياً فى علاقاته ... سلوك الذئاب للذئاب ، وتزيت المعنويات بالزى العملى والفورى « الكازويزتيكى «Casuistique» وتحكمت سلطة المادة بدلا من ضمير الإنسان .

ولقد أضحت العلاقات آلية مصلحيـــة ، ليس فقط بين المواطن والمواطن ، وإنما بين الجار والجار ، بل تعدت ذلك إلى بنية الأسرة بين الزوجة والزوج ، بين الأب والابن ، بين الشقيق والشقيق . . شىء

فى مقابل شىء وخضعت أسمى العواطف وأنبل المشاعر للتقنين السوقى ، ولغة التجار . . ! !

وها هو موكب التنكر والرفض وقد بدأ من الإله لينتهى إلى أسمى مافى ذات الإنسان . . فرفض الإله أدى بالضرورة — رغم مزاعم بعض أدعياء الإنسانية — إلى « إنسانية بلا إنسان » بعد أن فرغت من محتواها . إنسانية بلا معايير روحية خالدةمشتركة . مقلسة ، هى « كل وإنسانيته ، بمعنى كل حسب مصلحته ومنفعته » . هى إنسانية منه وإليه .. هى إنسانية مجتمع الغاب وأسرة الوحوش والذئاب ، إما آكل أو مأكول ، بطريقة أو بأخرى .

وهكذا تجلى واقع الرفض ومأساويته فى حياة الإنسان اليومية ، فى صورة شاب هارب عبر ضباب المخدرات ، أو لاهث منبت ماكر ، يريد الاستيلاء على كل ما فى جيوب الآخرين مع شكرهم له ! ! سواء أكان فرداً أو دولة عظمى ، وباب التبريرات مفتوح ، وبحرها لا ينضب ! ! كل يبرر حسب هواه ، أو فى صورة شاب لاه غارق فى الملذات ، يشغل وقته بضياع وقته ، وأمام غيبة العمق والجوهر لدى هذه الفئات ، كان التعلق بالمظهر فى غلو ومغالاة ، فى شكل تعويض أو إسقاط « ضاع ابنه فتبنى كلبه » . . ! !

ومن بين الإفرازات التى ترتبت على غيبة الجوهر والتمسك بالمظهر ، كان « إفراز البغاء الوحشى » الذى وجد مرتعاً له فى أسر متفككة منفصمة روحياً وعاطفياً ، تلهث فرادى خلف مصالحها ، بعد أن تنكرت لكل معانى التضحية الجماعية أو نكران الذات ، فى سبيل الآخرين ، وتزيت بزى الإشباع الاستهلاكى للغرائز ، ولم تلبسه قهراً « فالبغاء الوحشى » هو انعكاس لبيئته ، لا يزاول عن طريق الإرغام بقدر ما يزاول باسم التطلع إلى الملذات الاستهلاكية والجسدية ، والفضول والهروب من الذات . .

ومن هنا انقلبت المقاييس ، بعد أن التبست المعايير باسم فائض التبرير ، فأصبح التحرر يغطى التحلل ، والتحديث المفتعل – لا الأصيل – فى التربية يمحو مبادئها ، ويكفى كمجرد مثال لذلك ما نشرته أخيراً أهم صحيفة غربية « لموند » فى بداية أغسطس سنة ١٩٧٨ فى عرض لها عن مشاكل وأزياء الشباب « أن طفلا فى العاشرة من عمره وطفلة فى نفس السن سألا الباحث الذى قام بالعرض : هل هما فى حاجة لأخذ حبوب منع الحمل فى هذه السن ! أو ليس هناك خطر من الحمل حين استمرارهما فى المزاولة للعلاقة الجنسية بينهما » ولا شك أن وسائل الاتصال الإعلامى « الماس ميديا » سمعية وبصرية ومكتوبة بما تقدمه من نماذج سلوكية كما تجسد فى بعض مناحيها إطاراً للتوعية ، تشجع فى مناح أخرى سلبية السلوك المنحرف ، مبسطة له مما يسهل محاكاته وتقليده !

وقد انعكست المفاهيم واختلطت ، فأصبح تفتيت الأسرة من البداية باسم ترشيدها ، وعم اللاوعى باسم التوعية وأضحى اللامعقول هو المعقول !! ويكفى لكل أولئك مجرد القدرة على التبرير اللفظى ، والتفنن فى صياغة الجمل التنكرية التى لا تعطى أى محتوى محدد . .

إن البغاء الوحشى فى النهاية لا يمكن عزله عن الأوضاع الأسرية والاجتماعية والتربوية والاقتصادية كما لا يمكن تصوره كظاهرة هامشية ، بل هو فى الواقع نتيجة حتمية لهذه الأوضاع المختلفة التى تعيشها المجتمعات المتقدمة صناعياً ، والتى بدورها بدأت تصدره كما تصدر بقية سلعها السوقية إلى مدن المجتمعات الفتية بفضل طوفان التقليد والمحاكاة لمظاهر المجتمعات الاستهلاكية ، لا لوسائل تقدمها ، وعن طريق الفهم الخاطىء لطبيعة المثاقفة والتفاعل الحضارى ، ومسيرة التحرر .

قد تستطيع المجتمعات المتقدمة ، بما لها من رصيد فى التجربة العلمية ، ومن قدم راسخة فى تنهيج هزاتها واحتوائها ، أن تتجاوز هذه الظاهرة بعد أن تصل بها إلى حد الإشباع . . ولكن بالنسبة للمجتمعات الفتية فإن

الوضع يختلف فحينا ترسخ هذه الظاهرة الانحرافية فى جسد بلا مناعة ، وتأخذ قالب التعود والاعتياد على حساب رأس ماله القيمى الروحى والأخلاقى ، مبادئياً كان أم معنوياً أم سلوكياً ، فلن يزيلها مجرد النصح والإرشاد والوعظ . . ولن تجدى فى اقتلاعها وسائل الترهيب والزجر والردع والإكراه .

ومن هذا المنطلق كان التفهم الواعى بواقع الظاهرة ، مع كيفية الوقاية منها موضوعياً ، بعد التعرف عليها والتعريف بها ، هو فى تصورنا ، من الطرق التى لا تنعدم جدواها فى العلاج . . وهذا ما سوف نجدد معالمه باختصار فى خاتمة هذه الدراسة .



خلاصة

لقد جاءت هذه الدراسة التمهيدية المركزة عن « البغاء الوحشى » كظاهرة من أبرز ظواهر هذا العصر فى المجتمعات المتقدمة ، انطلاقاً من شرح الاشكالية فى البداية ، وكيف أن هذا البغاء يعتبر استمراراً معصرناً لظاهرة مزمنة مستوطنة ، تزيت بزى المجتمعات الاستهلاكية ومعطياتها ، فارتبطت بالرفاهية واقتناء الكماليات واستفادت من موجة التحرر العارمة لتزاول نشاطها تحت شعارها ، وفى بواطنها ، وتميزت عن ظاهرة البغاء العادى ، بأن عنصر القهر والإرغام ،والإكراه على المزاولة باسم الضرورة أو الحاجة أو الاستغلال من القوادة ، حل بدلا عنه الفضول والتشجيع والإغراء ، والرغبة فى طلب الحظوة مع المزيد من الرخاء .

فهذا النوع من البغاء ، ومن هذه الزاوية ، يعتبر تحديثاً للبغاء بلغة العصر ، غزا أرضية الانحراف وغزاها ، على حساب البغاء العادى ، وتقلص ظل حسناوات الليل المتسكعات على أرصفة الشوارع ، وأمام أبواب الحانات ، ليترك المجال لحسناوات النهار ، بالتقاطهن الخاطف ، وتسترهن يزاولن بغاء الحظوة ، والكماليات فى شكل ضمنى مقنع ...

ولقد أبان لنا الإطار الوصفى الحجم التقريبى لظاهرة البغاء الوحشى فى المجتمعات المتقدمة ، وأبعادها المختلفة ،وأن اهتزاز بنية الأسرة ساعد على اتساع هذا الحجم ، حيث إن المزاولات ممن جابهن تجربة فاشلة، أو انفصاماً فى الزواج أو فى العلاقات العاطفية يتصدرن القائمة ،خصوصاً فى المهن ذات الاحتكاك البشرى المباشر ، وفى الأماكن المشبوهة،ونوادى الترفيه وما أشبهها ، التى نمت ، وتشعبت ، وتعددت ، كستار لتغطية هذا النوع الربحى المقنع من الانحراف ...

كما حدد لنا العرض الخاص بسببية هذه الظاهرة فى المبحث الثالث والأخير من هذه الدراسة العوامل الأساسية المهيئة لهذه السببية ، وأنه يمكن إجمالها فى عاملين رئيسين : العامل الاقتصادى المتمركز حول الرفاهية والمزيد من الكماليات ، والعامل القيمى المجسد لضعف الالتزام بالقيم ، أو اهتزازها أو غيبتها أساساً ، وأن بين العاملين ارتباطاً عضوياً يتشكل فى/ صورة تناقضات موضوعية مترتبة بالضرورة والالتزام ، فضعف القيمساعد على الإسقاط والتعويض بالإشباع الغرائزى ، واستهلاك الجسد فى سبيل الكماليات ، حتى بات الاستهلاك غاية فى حد ذاته ، لا كمجرد وسيلة للبقاء ، ولم تعد للحياة من رسالة — اللهم إلا عند الفئات الملتزمة — إلا متاع الدنيا وزينتها ، فتأزمت إنسانية الإنسان ، لأنه إذا كان فى إمكانه أن يتنكر لهـــذه الإنسانية ، فليس فى مقدرته محوها من أعماقه ...

وانعكس الصراع بين الشهوات والقيم عند عشاق المتاع ، فى شكل معاناة جسدية عضوية عصبية ، أو نفسية ، أو حتى عقلية لدى البعض منهم ، ولدى البعض الآخر تبلور فى صورة سلوك هروبى تحت ضباب المخدرات والمسكرات ، وتعاطى المنومات ، إلى جانب سواقط بقية الفئات ممن فضلوا الرحيل بالانتحار الذى يتبوأ — حسب نسب الوفيات فى الإحصائيات الأمريكية الأخيرة — الدرجة الثالثة لديهم فى أسباب الموت ... وذلك اختصاراً لفائض المعاناة من الحياة ... وما البغاءالوحشى إلا حلقة من بين الحلقات التى احتواها مسلسل الاستلاب بالكماليات عند غلاة الرفاهية وعشاق الحظوة ، وعباد الأشباع والرخاء .

ولكن كيف يمكن مواجهة هذه الظاهرة ، بعد أن حددنا ما أمكن، أبعادها وعواملها ، من خلال التعامل الموضوعى البعيد عن الإدانةالحماسية السطحية الانفعالية ، والمغالاة فيها ، إلى درجة الإنكار لحقيقة واقعها المعاشى فى الحياة اليومية ، أو التقبل لها بروح رياضية كما يزعمون كردود

فعل عادية لمتغيرات هيكلية فى واقع أسرة ومجتمع الغد ، تؤخذ على علاتها كتهوية مؤقتة ، للوصول بها إلى درجة التشبع والملل ، ثم التراجع تلقائياً، كما دعا إلى ذلك بعض الباحثين فى المجتمعات الغربية؟..

للإجابة على هذا التساؤل نبدأ أولا باستبعاد الحلول التى تبدو لنا فى مظهرها حلولا ناجعة للمواجهة ولكنها فى جوهرها عارية عن الفاعلية ، أمام هذه الظاهرة الاستيطانية ، وطبيعتها المزمنة واندفاعها الوبائى الآن وإن تغيرت وتنوعت ، بتعاقب العصور وأزمنة التاريخ ، بل إن هذه الحلول التى سوف نستبعدها لا تزيدها إلا تعقيداً ومناعة وحصانة وانتشاراً فى الظل تحت ستار الإضمار .

ولنأخذ كمثال : حل الردع والرقابة والزجر ، إذا ماتم عشوائياً دون دراسة وحصر وحصار ، توطئة لإذابة العوامل المهيئة موضوعياً فى البداية، فإنه فى العادة يدفع إلى النقيض ، ويأتى بنتائج عكسية ، لأنه يولد المقاومة ، ويكسب الظاهرة قدرة للاحتيال على القانون والقيم ، ووجود المخارج ، وتحاشى المآزق والمزالق ..

كذلك حل الاعتماد على النصح المجرد ،فهو لايسمن ولايغنى من جوع — إن صح التعبير الشائع — فكثيراً ما تتبخر آثاره فور الانتهاء منه ، وإن كنا مع هذا لانستبعد بالضرورة أثر الموعظة الحسنة الحكيمة ، حينما تدخل فى إطار توعية متكاملة مدروسة ، كما سنرى فى الأسطر التالية ..

وأما الحل الذى تبناه بعض الباحثين المختصين فى الغرب باسم المواجهة العملية — وقد أشرنا إليه سلفاً — وهو حل التشبع بمعنى ترك الظاهرة ، والتحرر الجنسى حتى حد الإشباع والتحلل والملل ، فتكون الردة ويتم التراجع التلقائى .. هذا الحل إن كان قد حقق نسبياً جانباً من الفاعلية فى المجتمعات الشمالية وانجلترا ، غير أنه ولد انتكاسات لاتقل تعقداً عن الظاهرة فى حد ذاتها .. فمن المعروف أن الأفلام الإباحية ، والتحرر

الجنسي ، بعد سكوت المشرع ضمنياً ، أو غض النظر عنهما ، أو سن القواعد التي تخفف من حدتهما لا مشروعيتهما ، باسم حق حرية استعمال الجسد ، بما يتراءى لصاحبه أو صاحبته ، ما دام لا تترتب على ذلك أضرار فعلية تمس بالغير .. هذه الأفلام والتحرر ساعدتها على انتشار ظواهر الانحراف في الآونة الأخيرة ، بدلا من تقليصها والحد منها ، بل بدأت تتكامل في بعض مناحيها ، مع أوساط المخدرات ، والعلاقات الجنسية الشاذة حتى جنوح الصغار ..

ولعل المناقشة التي دارت أخيراً عن مدينة نيويورك ، ونقلت أصداءها « دل ستريت جورنال » — وقد أشرنا إليها في المبحث السابق — حول البغاء الوحشي الالتقاطي في هذه المدينة ، بين النائبة الأمريكية « كارل جتزر Gentzer » الداعية للإصلاح ، وعضو الشيوخ « مانفريد أورينشتين Orensteint » الداعي إلى الردع ، والنائب « جوتفريند Gattfriend » القائل بالتحرر ، وأن المرأة حرة في جسدها .. لعل هذه المناقشة تصور لنا مدى التردد الذي بدأ يسود أجواء دعاة الحل العملي وأدعيائه ، أمام سرعة الانتشار الوبائي لهذه الظاهرة ..

بل لوحظ — على ضوء نتائج التحقيقات والاستطلاعات الاجتماعية الأخيرة — أن هذا النوع من البغاء الوحشي بدأ يفتح الطريق ويمهدها أمام أنواع أخرى انبثقت ارهاصاتها في المجتمعات المتقدمة ، كمثال « البغاء الحدثي الجماعي » بين صغار المراهقين ، ونزل سن المزاولة الجنسية ، حسب التحقيقات الأخيرة ، من ١٨ عاماً عند الفتاة إلى ١٤ عاماً ، ومن ١٩ عاماً عند الشاب إلى ١٦ عاماً (كما جاء في عرض جريدة « لموند الباريسية » أعداد أوائل أغسطس سنة ١٩٧٨) ، خصوصاً في تجمعات المخيمات الصيفية والرحلات الجماعية للصغار .. ومن هنا فإن هذا الحل المبني على ترك الظاهرة تنمو حتى حد الإشباع والملل منها ، توطئة للارتداد والتراجع التلقائي عنها ، يصعب علينا — كما وضحنا ذلك في

بعض اللقاءات الدولية المتخصصة ـ قبول القول بفاعليته حتى إشعار آخر ، أمام هذه الحقائق الموضوعية التى أوردناها آنفاً ..

بقى علينا فى النهاية أن نحدد ما نراه ، كأسس موضوعية للحد من انتشار الظاهرة بحصرها وحصارها ، كمرحلة مبدئية ، والتصدى لعواملها المهيئة ، بشل فاعليتها إلى أبعد حد ممكن كمرحلة تالية ، لنصل إلى نتائج ملموسة ، لا لحلول مصطنعة فورية وسحرية ، فهذا ضرب من الطوباوية للقضاء على ظاهرة تعتبر من أعقد الظواهر التى عرفتها البشرية ، بما فيها من استيطان وأزمان . وحتى بالنسبة للقلة من المجتمعات المعاصرة التى زعمت أخيراً أنها قضت عليها « بحلول فورية جذرية » لم تفعل أكثر من أنها أنزلتها من السطح المعلن إلى القاع المضمر ، وبصور متعددة فى كبتيتها وتقنعها ، وأما الغالبية من المجتمعات سواء ذات اليمين أو ذات اليسار فلا تنكر ضمنياً وجود هذه الظاهرة ، وتسعى إلى البحث الجاد عن العلاج .

هذه الأسس التى نراها يمكن إيجازها فيما يلى :

أولا : فى التوعية الموضوعة بواقع الظاهرة بعد حصرها ، ما أمكن بفضل الاستطلاعات العلمية والتعريف بأضرار مزاولتها على كل المستويات : الجسدية العصبية والنفسية والاجتماعية والاقتصادية ، فضلا عن الروحية والمعنوية ، وباستغلال وسائل الاتصال الإعلامية « الماس ميديا » سمعية وبصرية ومكتوبة ، وإعطاء عروض ممنهجة من المختصين : أطباء ، ونفسيين ، واجتماعيين ، واقتصاديين ، ورجال دين .. تعتمد على التعليل ، والحيثيات الملموسة فى الإقناع ، لا على انفعال الكلمة ، وحماس اللفظ ، والمغالاة فى التهويل .

ثانياً : إعطاء أولوية مطلقة للإطار التشريعى للأسرة كقدرة وقائية ، وجعل وسائل الردع وأجهزته تتدخل فى نهاية المطاف لا فى بدايته ، فالردع والزجر لا يحلان المشاكل بقدر ما يساعدان على تغليفها ، وإكسابها مناعة وحصانة ... بعد التعود عليهما ، أو اكتشاف المسالك الاحتيالية لتحاشيهما ...

فتحت راية التوعية إذن بعد حصر الظاهرة والتعرف على حجمها وآلياتها وفاعليتها ، بفضل الطرق ، والمناهج العلمية المعروفة والمتداولة ، توضيح أضرار هذه الظاهرة عن طريق نشر الوعى بذلك ، من خلال وسائل « الماس ميديا » أى الاتصال الإعلامى ... وكمجرد مثال نسوقه لهذه الأضرار ، الجسدية منها : بما تنقله العلاقات المشبوهة من أمراض جنسية ، إن كان بعضها يمكن التغلب عليه بالعلاج ، فهناك مايستحيل علاجه بعد أن يستوطن ويزمن ، رغم التقدم فى اكتشاف المضادات الحيوية ، لأن جانباً من الجراثيم والميكروبات يكتسب مناعة بعد استئناسه للمبيدات الحيوية هذه ، وتعوده عليها ...

والأضرار العصبية والنفسية يجب ألا نغفلها بعد أن تأكد علمياً انعكاس الانحلال ، والانحراف ، والتحلل ، على تعادل الشخصية ، وتأثير المغالاة فى ذلك على الجهاز العصبى ، واهتزاز المقومات الأساسية للذات ، وخلق أو تنشيط الآليات العصبية والذهانية . كذلك الأضرار الأسرية بما يترتب على الانحراف من تدمير لجو الثقة فى الأسرة ، واجتياح أمواج الريبة والشك لبنيتها ، فتبرد العواطف أو تجف ، وتضيع أرضية الوئام والطمأنينة والرحمة والود ، وتحل بدلا منها أرضية الغش ، والخداع ، والكراهية ، وربما العداء ، وما أشد عداء الزوج والأولاد ، وقد حذرنا القرآن الكريم من وقوعه ...

وهكذا تضعف العلاقات الأسرية وتنعكس على العلاقات الاجتماعية ، بعد أن تغلفت بالحقد والنفاق . ولايمكن إغفال الأضرار الاقتصادية ، لأنه إن كانت المزاولة تكسب اقتناء بعض الكماليات لأسرة ، فهى فى مقابل ذلك تدمر دخل أسرة أخرى ، وعلى الأمد الطويل « يوم لك ويوم عليك » ... هذا المثال الذى أعطيناه للتوعية كنموذج ، لاجدوى منه إذا قدم انفعالياً ، وحماسياً ، وترهيبياً ، وإنما جدواه تكمن فى تدعيمه بالتوثيق والحجج ، والبراهين ، والحيثيات الموضوعية ... وبالتالى شتان مابين توعية عفوية تعتمد على المجازفة ، وأخرى ترتكز على التعليل والإقناع ...؟!

ولاتقف التوعية عند حد التعريف بالأضرار ،وإنما تتعداه للتعريف بالبديل ، والحث عليه ، والترغيب فيه وتهيئته ... فلئن كانت مزاولة السلوك الانحرافى ، رغم مظاهر التمتع الزائل ، تدمى فى الحقيقة الجسد وتفقده توازنه وتؤثر على مقومات الشخصية ، وتخلق الاهتزازت النفسية والعصبية وتقوض صرح العلاقات الأسرية والاجتماعية ، وتستنزف دخل القادر فيما يضره لاماينفعه وينفع مجتمعه ، وتدفع بدخل الضعيف إلى الإفلاس ...

فماذا عن السلوك السوى المتعادل .. لانقول السلوك الأمثل ، سلوك الصفوة التى اصطفاها الله تعالى من الأنبياء والرسل والأطهار ،والصوفية الأصفياء والأولياء والصالحين ، ممن عرفوا حقيقة الدنيا ، وأهواءها ، ومتاعها وغرورها ، وعملوا على النجاة من هذه الهاوية ، فأنجاهم الله منها ، بعد أن اختارهم أو هداهم ... ولكن نتحدث عن السلوك الذى يضمن على الأقل ، لإنسان عادى مثلى ومثلك ، أن يتجنب مواطن الزلل ما أمكن ويخفف من أخطائه ... بفضل توعية مبسطة تحدد له معالم الحياة الكريمة ، وتزكى لديه السلوك المتعادل المبنى على مبدأ التكامل والمشاركة..؟

فالإنسان كفرد ، إن كانت له حقوق على مجتمعه ، فلمجتمعه واجبات عليه ، وإن كان يطلب من ربه العون إن صدق إيمانه ، فليبدأ هو أولا بمعونة نفسه ومن حوله : « اعقلها وتوكل » ، هكذا قال رسول الله عليه السلام ولم يقل: (توكل وكفى ...) حتى يكون أهلاً لمعونة ربه ... يعطى بقدر مايأخذ ، يحقق بقدر مايطلب ، يعمل على ترويض جسده وتطويعه وصيانته ، فيصونه جسده ويطاوعه ، يسعى إلى الحياة الكريمة فتسعى إليه ، يتطلع إلى غاية الحياة ولاينزل إلى مستوى التكالب على وسائلها ، مستوعباً قبل أن يحدد الموقف لامحدداً لموقف عشوائى عفوى اعتباطى له ، يفنى عمره ليستوعب فناء موقفه من البداية . يرتقى بإنسانيته متدرجاً من سلوك واع ، إلى معنويات موضوعية ، إلى أخلاقيات ... مبادئية فيسمو نحو الروحانية ليكتشف سعادته المثلى فى حبه لربه وتقديره

لما خلق ، فهو جل وعلا خلق الإنسان عاقلا ، وعلمه مالم يعلم ، وسوى نفسه وحمله الأمانة ، وكرمه بين مخلوقاته ، ولم يخلقه عبثاً وباطلا لرحلة عمر ضائع لاه بالملذات المؤقتة الزائلة ، وبمتاع الدنيا الفانى بفناء الجسد ، فما رأينا أحداً صاحبته ملذاته إلى قبره ...

والمجتمع ، بدوره ، يعطى أولوية لإطاره التشريعى بما يضمن هذه الحالة الكريمة للساعين إليها ، فيدعم كيان الأسرة – ولا يجعل المرأة مجرد سلعة أو وعاء يلقى به بعد استعماله – ويحقق تطلعاتها المشروعة بضمان حياتها وأطفالها ، لامادياً فقط ، وإنما معنوياً وإنسانياً واجتماعياً ، ويعمل على ترشيدها ، وتوجيه الشباب نحو العواطف السامية ، والمثل الإنسانية والوطنية ، والمشاعر الرفيعة النبيلة بين الجنسين ، فى ظل الاحترام والتقدير المتبادل ، بما يؤصل بناء المجتمع ويكفل إيجابياً صلاحية استمراريته ... على أن ديننا الحنيف ، بمبادئه الخالدة ، وتقاليدنا الأسرية العريقة أقاما صرح هذه الأخلاقيات وأعطيا لهـا الصدارة فى كل العصور والأزمان .

كما يسعى المجتمع أيضاً ، بفضل تشريعاته الموضوعية هذه ، إلى تشجيع العامل المخلص لا العاطل المتخاذل .. فإذا كان الله سبحانه وتعالى قد اعترف له بأنه لايضيع أجره « **إنا لانضيع أجر من أحسن عملا** »(١) فمن باب أولى أن يعترف له المجتمع بذلك ، فيعطيه حقه ... ومن ثم يتحقق بفضل التشريع المدروس الملموس ، والتطور الموضوعى للأسرة والمجتمع ، مالا يمكن تحقيقه ، بالقهر أو الإكراه أو بالحماسات الجوفاء ، والمجازفات الاعتباطية فى التشريع المستلهم من المبادىء السماوية الخالدة ما يحقق بناء مجتمع الكفاية ، مجتمع المساواة والعدل فى غابر الإنسانية وحاضرها ، ومستقبلها . مجتمع الاعتدال ، والتسامح ، والتجاوز ، والوفاق الأسرى والجماعى ، لامجتمع التكالب والصراع ، والتطاحن ، والانحراف ، والبغاء الوحشى ...

---

(١) الكهف : ٣٠ .

محتويات الكتاب

الموضوع | الصفحة

الفصل الثالث : الماركسية والدين

(٥٣ — ٧٦)

الموضوع — الصفحة

الفصل الرابع : السحر وما حوله وما له وما عليه

(٧٧ — ١٠٦)

الفصل الخامس : إنسان القرآن من خلال أبعاده الاجتماعية

(١٠٧ — ١١٩)

الفصل السادس : البغاء الوحشى

(١٢١ — ١٧٣)

الموضوع الصفحة

رقم الايداع بدار الكتب ٣٦٣٤/٨٠
الترقيم الدولى ٨ ـ ٠٠ ـ ٧٣٣٥ ـ ٩٧٧

دار غريب للطبـاعة
١٢ شارع نوبار (لاظوغلى) القاهرة
تليفون : ٢٢٠٧٩

هـذا الكتـاب

- **هـذا الكتـاب** : يشتمل على مجمـوعة من الدراسـات للمفـكر الاسلامى الكبير – **الدكتور رشـدى فكار** – الأستاذ بجامعة الامـام محمد الخـامس – بالرباط – والأستاذ الزائر بالجامعات العربية والأوروبية ، والعضو المشـارك فى أكاديمية العلوم « مجمع الخالدين » بفرنسا – وعضو الهيئة العالمية للكتاب بالفرنسية ٠٠ والمرشح لدى الأكاديمية السويدية – منذ ٣ أكتوبر سنة ١٩٧٦ لجائزة نوبـل فى الأدب ٠٠٠

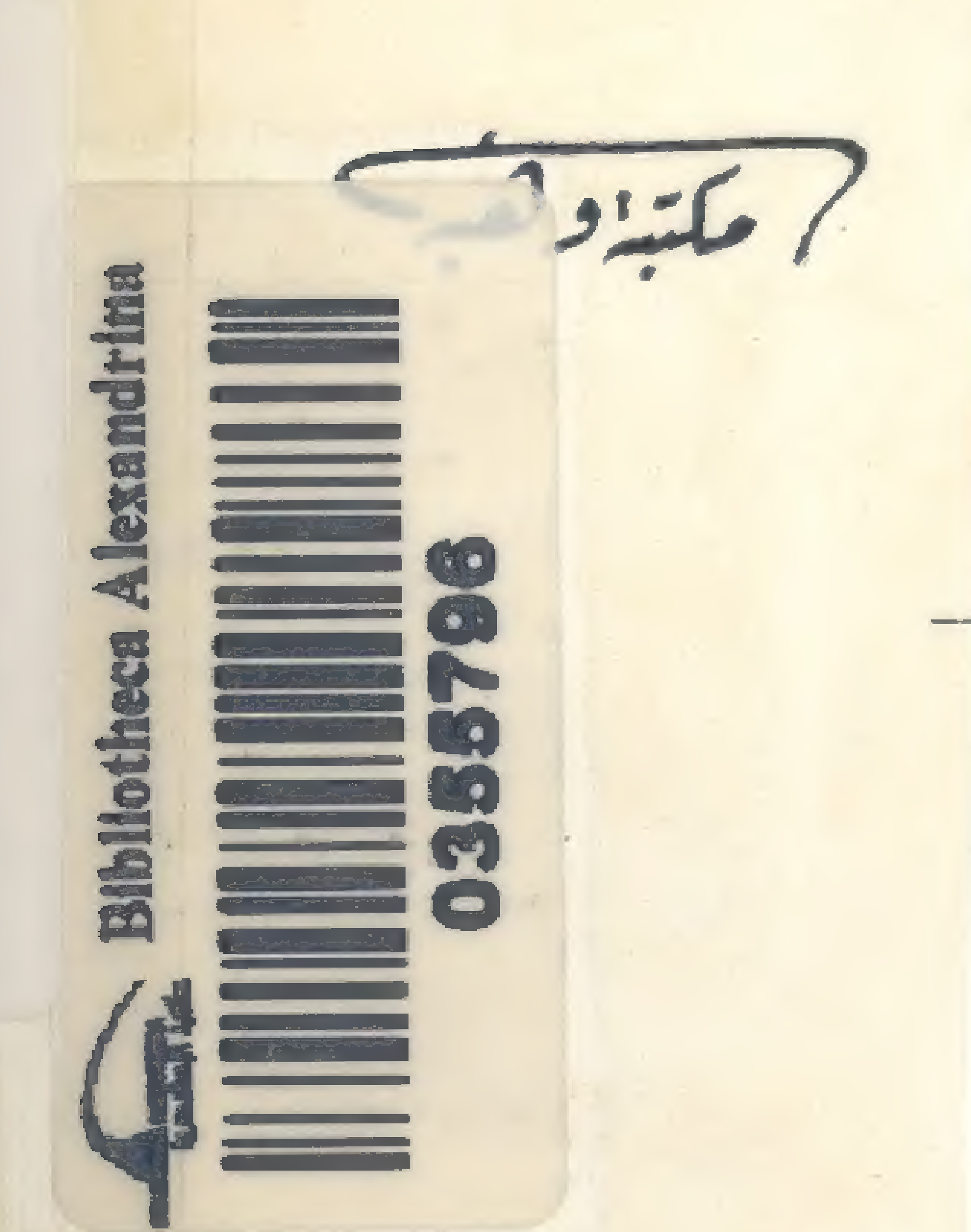
- ورغبة فى الاسـتفادة من انتاج هذا المفكر الاسـلامى الكبير فى المحيط العـالمى – باللغة الفرنسية أساسا ٠٠ الى جانب اللغة الانجليزية ٠٠٠٠

- وأمام الرغبة الملحة – لقراء العربية – فى العالم العربى والاسلامى ٠٠ نتقدم بهذه الدراسات – وفاء بعهدها – علميا ومنهجيا – للتعريف بقضايا الانسان والمجتمع على ضوء – **تأملات اسـلامية** – ترى هـذه القضايا بمنظار العصر وتحت رايـة الالتزام بالأسس والقيم الخـالدة ٠٠٠

- وتقـع هذه الدراسات فى ستة فصول ٠٠ كل فصل منها يتناول قضية – منفصلة – **من قضايا الانسان والمجتمع** – وان كانت جميع الفصول تلتقى فى نظرة شمولية من منطلق اسلامى ، تحتكم الى قدرة العقل ومناهج العلم ، لتطرح فى القـرن العشرين ٠٠ أن لا صلاحية لانسان فى غيبـة التزامه بتعاليم السماء ٠٠٠

- ونظرا لتعدد الاستشهادات والنقل من هذه الدراسات المهمة فى البلاد العربية ٠٠ نشير بعد المراجعة والاستئذان من المؤلف ٠٠ أن هذا هو النص الكامل والوحيـد – باللغة العربية – الذى لم يلحقه أى تحريف أو تشويه ٠٠

ومن الله نستمد العون والتوفيق ؟



دار غـريب للطبـاعة
١٢ شارع نوبار (لاظوغلى) القاهرة
تليفون : ٢٢٠٧٩